بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَعالِمُ الطَّرِيقِ
إلى صِناعةِ ورثَةِ الأنبياءِ

بقلم

محمود توفيق مُحمّـد سَعد

الأستاذ في جامعةِ الأزهـر الشّريفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ★ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ★ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ

[يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)[الحديد:١٢]

اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارِكْ عَلَى سيّدنا ومولانا مُحَمَّدٍ وعلَى آل سيدنا محمدِ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ وصَحابته وعلينا وعلى من آمن به ، كَمَا صَلَّيْتَ وسلمتَ وباركتَ عَلَى سيدنا إبراهيم ، وعلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ في العالمين إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ عدَدَ خلقك ورِضَاءَ نفسِك ومدادَ كلماتك كما تحبُّ ربّنا وتَرضَى. واجزه عنا ما هو أهله في كلّ لمحةٍ ونفسٍ بعدَدِ كلِّ معلومٍ لك يا عليّ ياعظيم ياحيُّ ياقيوم يا ذا الجلالِ والإكرامِ

اللّهُمّ إنَّا نبرأُ مِنْ حَوْلِنا وقوّتِنا إلَى حولِكِ وقُوتِك، فَكُنْ يارَبَّنا حَوْلَنا وقُوّتَنا، وَكُنْ سَمْعَنا الَذي بِه نَسمَعُ ، وبصرَنا الّذِي بِه نُبْصِرُ إنّك وليُّ ذلك والقادِرُ عَلَيْهِ .

أمّا بعدُ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[التغابن:١٦] ([1])

---

[1]) حقيقٌ عليْك أن تكونَ هذه الآية حاضرة في فؤادة فاعلةً فيه قبل أن تقوم إلى عملٍ ،وإن قلّ أو دقّ .

تأمل توالي الأوامر الربانية التي يربيك بها ربّك ﷻ، فهو يَرُبّك بها لتكونَ أهلًا لإكرامه والتعرض لنفحاتِه

هذه خمسة أوامر: أربعة جاءت في أسلوبِ إنشائي طلبي (بصيغة الأمر :أفعلوا)

١ == (اتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

٢ == (وَاسْمَعُوا)

٣ == (وَأَطِيعُوا)

مرحبًا بوصيةَ سيدنا رسول اللهِ ﷺ لنا في جامعةِ الأزهر الشّريفِ فسطاطِ الخيرِ والعلمِ

هاجرْتُم مِن دياركمْ وأقوامكمْ تطلبون علمًا نفيعًا لكُم ولأقوامكمْ ولأمتكمْ وذلك لاريبَ عملٌ جليلٌ نَبيلٌ.

وكلٌ جليلٍ نبيلٍ من الأعمالِ إنمًا يُستمَدُّ من أمريْن كليّين :

« عينِ الجُودِ »

« بَذْل المَجهود »

ولا يكونُ الجُودُ الرَّبانيُّ إلّا لِمن قام لبذلِ المجهودِ وأعدَّ له عُدَّتَه وأهلّ نفسَه لذلك .

ولا يكونُ بذلُ المجهودِ مثمرًا إلّا إذا كان شَيْءٌ من الجُودِ الربّانيّ. فَهُما معًا : فيضُ الجودِ الرَّبانيّ وبذلُ المجهودِ الإيمانيّ متلازِمان فِي كُلّ عَملٍ جليلٍ ونبيلٍ ، ولا سيّما طَلَبُ العلم النّفيع في الدّاريْنِ.

---

٤ == (وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ)

والأخير جاء في أسلوب خبرٍ :

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) والمعنى قوا أنفسكم شحّها .

وإيراده في صورة الخبر إعرابًاعن عظيم أهميته ، فمن سنة اللسانِ العربيّ أنه إذا أراد الدلالة على مزيد الاعتناء بالأمر جاء به في أسلوب خبر مثبت موضوفٍ بوصف حسن هوأو فاعله، وإذا أراد النهي عن شيْءٍ جاء به في أسلوب الخبر موصوفًا بوصفٍ سُوء هو أو فاعله ، تنـفيرًا منه .

هذه الخمسة عليك طالب علم بل طالبأنتكون من ورثة رسُول الله ﷺ أن تتحقق منأنك قائم بها .

ولاتحسبِن الإنفاق المأمور بِه في قول ﷻ : (وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ) مَقصورًا على انفاق الأموال ، فإِن إنفاقها صورة من صور الإنفاق في سبيل الله ﷻ ، فهنالك إنفاق من علمك ومن عملك الصّالح ، ومن مهاراتك وخبراتك ، ومنْ وقتك ومن جهدك أو جاهك عند عظيم ومن قربك من ربك ﷻ .... كل ذلك مجال أنفاق في سبيل الله تعالى،فليكن لك من هذا الإنفاق نثيبٌ موقور احتسابًا وإيمانًا

فذلك من شيم طلاب العلم : الطالبين أن يكونوا أهلا لأن يحوموا حولَ حمَى مقام «وراثة النبي» ﷺ . وأنعم به مقامًا .

وهذا يستوجبُ على كلّ منكمْ أن يبصر الأسباب التي تجعلُه أهلًا لأن يُفيض عليه ربنا ﷻ من جودِه الذي لاينقطِع ، فإنَّ لذلِك أسبابًا واسْتحقاقاتٍ .وما كانَ عَطاءُ ربّك محظورًا .

ويستوجبُ عليْه أن يكونَ بصيرًا بما يقتضِيه بذلُ المجهود من مهارات وخبرات وأدواتٍ حسيّةٍ ومعنويّةٍ .

فمن سعَى إلى عملٍ وهو لم يُهَيِّءْ نفسَه أن يكونَ أهلًا لأن يُعيّنه الله تَعالى عليه أو لمْ يكنْ عليمًا باستحقاقَاتِ ذلك العملِ منْ مهاراتٍ وخبْراتٍ وأدواتٍ مليكًا لها .

وعلى كلِّ من قامَ لعمل أن يسأل نفسَه ثلاثةَ أسئلةٍ رَئيسة لا يستقيمُ له أن يشرَعَ في عملِه مِن قبلِ أن يُحقّق الجوابَ عَنْها جوابًا يُوقِنُ أنّه ممَّا يرضاه الله ﷻ ورسُولُه ﷺ . هذه الثَّلاثة الأسئلة هي: لماذا؟ ، وبمَ ؟ وكيْف؟

وإجابة الثاني « بِم » مترتبةٌ على الأول «لماذا» والثَّالث«كيف» مُترتّبٌ علَى الأوَّلَيْن : «لِماذا» و«بِم».

الأمرُ كما ترَى ليسَ عشوائيًا إنّه جهاد في سبيلِ اللهِ تَعالَى .

وهو ﷻ يقُولها «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ »[الأنفال:٦٠] ([1])

---

[1]) تبصر قوله ﷻ : «أعدوا» وما فيه من التكلف باستفراغ الجهد في هذا الإعداد ، فلا يدع المسلم سبيلًا يحقق له قوته إلا سَلكه واتخذه ، وتبصرقوله ﷻ :«قوّة» وما في التنكير من تعظيم،وتعميم .

روى مسلمٌ في كتاب «الإمارة» من صحيحِه بسندِه عَنْ أَبِى عَلِيٍّ ثُمَامَةَ بْنِ شُفَيٍّ أَنَّهُ سَمِعَ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ ﷺ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ :« وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْىُ أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْىُ أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْىُ »

و" الرمي" هنا عام غيرُ مقصور على ما الرمي بشيءٍ من نحو رمح] أو نبلٍ أو حجرٍ ونحو ذلك ن بل كل ما يعد في زمانك ومصرك قوةً ، فارم به،ومنه الرمي بصحيح العلم وصريحه، وبصالح العمل ،وبالتزلف إلى الله تعالى ...

ثلاثة أسئلةٍ يُمثّل الجوابُ عنها « **معالمَ الطَّريقِ إلى صناعة العلماء ورثةِ الأنبياءِ** » المعقود لبيانه إن شاءَ الله - تعالَى - مجلسنا هذا.

وما نحنُ في زماننا هذا بذي عَوزٍ إلى من يكونُ منْتهى طَلِبتِه وبغيتِهِ من طلبِ العلم أن تتيسر له به سبل اكتساب رزقِهِ ورِزق مَن يعولُ ، وإن كان اكتسابَ الرِّزقِ الحلالِ عبادةً إلا أنّ طلب العلم لذاك خاصة ليس هو السبيلُ الحميدُ.

إنّما يكونُ طلبُ العلمِ لما هُو أمجدُ مِن مُجرَّد تيسير السَّبيلِ إلَى اكتسابِ الرِّزْقِ الحلالِ على جلالِهِ .

يكونُ لأعمارِ الحياةِ بالحقّ والخيرِ احتسابًا.

ويكون للارتقاءِ إلى مقام «الْوراثةِ»: ورثة النَّبيّ ﷺ . ذلك هو المأمُ الأنفسُ والمحجُّ الأقدسُ .

فحَقٌ عَلَيْنَا أن نستجدِي ربّنا ﷻ أن يمنّ علينا بكميل الإخلاصِ الصَّفيّ له في أقوالِنا وأفعالنا وأحوالِنا ظاهرِها وباطنِها ، وأن يَصْرِفَ عَنا ما لا يرضَي ،وما يشغلُنا عنه، وأن يصرفَنا إلى ما يُرضِيه ؛ لِيرضَى عنها رضوانًا مديدًا لا ينقطعُ . وأن يشغلَنا بما يُحبُّ ويرضَى حتىّ نلقاه راضيًا عنّا . إنّه ولي ذلك والقادر عليْه .

وكتبه

مَحمود توفيق محمّد سَعد

الأستاذ في جامعةِ الأزهر

القاهرة – مدينةِ الشّروق

الأحد:١٢/ ٥/ ١٤٤٥هـ

(٢٦/١١/ ٢٠٢٣م)

[باعِثُ الْمُسْـلِم علَى طَلَبِ العِلمِ النّفيع]

قلت : حقيقٌ على كلِّ قائِمٍ إلَى عَمَلٍ نَبيلٍ وفي طليعةِ ذلك «طلَب العِلم النّفيع » أن يَسْعَى إلى إحسانِ الجوابِ عَن ثلاثـةِ أسئلةٍ جَوهَريّةٍ كُليّةٍ : «لِماذا»،«وبِـم»،«كيف»

حقٌ عليْك طالبَ علمٍ أنْ تفعلَ ذلك لنفسِك بنفسِك لتكونَ مِمَّن يَطعمُ مَن عَمل يدَه، لا يستجدِي،ولا يستقرضِ ما كان مقتدرًا ؛ ليكونَ في مَنعةٍ مِن ذُلِّ المَسألةِ .

روَى البُخاريّ في كِتابِ«البُيوع» مِن صَحيحِهِ بسندهِ عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ عَنِ الْمِقْدَامِ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ » ([1])

★★★★★

إذا ما كنتم شبيبة الإسلامِ فارقتُمْ دِيارَكمْ وَأقوامَكمْ وجئتم ساعين آمِّين الجامع الأزهر «فسطاط الخير» في " مصر" كنانة الله تعالَى في أرضِه مستجيب حثّ الله ﷻ لكم ولكل عباده إلى النفرة في طلب العلم بقولِه ﷻ : « وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ

[1]) إذا ما كان في شأن طعام أجسادنا لا نأكلُ إلا من عمل أيدينا، فإن طعام عقولنا وقلوبنا وغذاءها وهناءها من عملنا نحنُ أولى وأوجب، فلا نقتات فتات موائد غير المسامين ورجيع عقولهم الضليلة .

حقٌ على كل مسلمٍ أن يكونَ العزيز الرائد ،لا يمدّ يده لأحد من الخلق مستجديًا، بل يد يمينه بالخير متفضّلا ، فإيّاك أن تكونَ غير ذلك..

فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ » [التَّوبة:١٢٢] ([١])

إذا ما كنتمْ كذلك فحقٌّ عليْكم أن تُحقّقِوا الجواب عن السؤال الأول : لماذا تطلبون علمًا ،وتنفروا لطلبه ،وتهاجرون ؟

سؤالٌ جوهريّ يُؤسَّسُ عليْه كلُّ شيْءٍ من بعدِه على ما هدَى إليْه سيّد المرسلين ﷺ في ما رواه الإمام البخاريّ ﷺ مستفتحًا به كتاب **"الجامع المُسند الصّحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه"** :

روَى ﷺ في طليعة كتابِ «بدءِ الوحي» وفي أربعة أبوابٍ أُخرَ :« العتق، والنكاح، والأيمان والنذور، والحيل» ورواه مسلم في كتاب « الإمارة» من صَحيحه بسندهما : من صَحيحه بسندِهِ عن عَلْقَمَةَ بْنَ وَقَّاصٍ اللَّيْثِيِّ ﷺ يَقُولُ سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ ، وَإِنَّمَا لاِمْرِئٍ مَا نَوَى

فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ

وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ »([٢])

---

[١]) لك أن تنظر في تدبر هذه الآية رسالتي المعنونة بـ«الهجرة في طلب العلم» فلعلك تجد فيها ما ينفعك ، فلا تَبْخلّن على نفسِك ، ولا تبخلنّ عليّ بالدعاء بالستر العميم المقيم وبحسن الخاتمة في الأمر كلّه في الدّارين .

[٢]) يَحسن بك أن تفيئَ إلى شرح الحديث في كتاب «فتح الباري» لابن حجر العسقلاني في الأبواب الخمسة ،وفي كتاب:«مجموع الفتاوى» تأليف: تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت: ٧٢٨هـ) جمعه: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ..مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية .عام النشر: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م,ج:١٨ ص٢٤٤ - ٢٨٤» .

وهذا الحديثُ على الرَّغم من شهرته بيْن المسلمين ولا سيَّما أهلُ العلمِ وطلبتِه إلا أنَّه من أكثر الأحاديثِ الّتِي يغفلُ كثيرٌ منهم عن استحضاره في أفئدتهم من قبلِ القيام لما شاؤوا من عمل، وفي أثنائه ،وعَن تحققّه فيهم ، وعَن رصدِ مستوَى حضوره في أمرِه كلّه قولًا وفعلًا حالًا ظاهرًا وباطنا طلية العمل ، فإن الشيطانَ إذا ما تعلبت عليه في مفتتح عملك فحققت الإخلاصَ في سعيك ، فإنه يبقَى متربصًا بك في كلِّ لحظةٍ ؛ لينقُض إخلاصَك في أثناءِ عملك فيهدمَه مِن أصلِهِ ، فقد أقسم :« قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ(١٧)» [الأعراف]

«قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)» [الحجر] « قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) »[ص]

مَن لَم يُحسِن الجوابَ عن سؤال «لِماذا» فحقّ عليه لنفسِه وقَومِه ألّا يتحرَّك من مكانِه حتَّى يحقّق في نفسِه الجوابَ الرَّضيّ المسترضَى والّذِي بِه يكونُ القبولُ والإقبالُ.

لا يكونُ السَّعي طلبًا للعلمِ من أجلّ ما هو مِن دونه شرفًا ، وأثرًا، فمن شرعةِ العقلِ الفطريّ أن يُطلبَ بالشّيءِ ما هو أجلّ منه وأمجدُ ، وأحمدُ ، فمن طلب بالعلم دنيا، وإن عظمتْ في أهلها ، فهو مِمّن طلب بعظيمٍ حقيرًا.

مَن طلب بالعلمِ الدّنيا كان أحمقَ ممَّن طلبِ الدنيا بمزمارٍ .

مَن طلبَ الدُّنيا بمزمارٍ ونحوه فإنّما طلبَ حقيرًا بحقيرٍ ، ومَن طلبَ بالعلم الدّنيا كلَّها فقد طلبَ حقيرًا بعظيم، وتلك لا يرضَها عقيلٌ لنفسِهِ بتّةً. ([1])

---

[1]) روَى ابو داود في كتاب«الزّهد» مِن سننه بسنده عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ ».

وروَى ابن ماجه في كتاب«الزّهد» في سننه بسندِه عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ﷺ قَالَ :

كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِذِى الْحُلَيْفَةِ فَإِذَا هُوَ بِشَاةٍ مَيِّتَةٍ شَائِلَةٍ بِرِجْلِهَا فَقَالَ :

« أَتُرَوْنَ هَذِهِ هَيِّنَةً عَلَى صَاحِبِهَا فَوَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ عَلَى صَاحِبِهَا وَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا قَطْرَةً أَبَدًا ».

لا تحسبن أنّ سيدنا رسُول الله ﷺ بحاجزك عن أن يكونَ متاع الدنيا حلالا في يديك كلا، هو يحاجزك عَنْ أن تكون للدنيا ومتاعها عبدًا،وأن يكون سعيك لتحصيل متاعها لغيرِ الله تعالى ، فإنما متاعها خلق لك مسلمًاللتخذه عدة لنصرة الحقّ بالحق، ولتنصر مظلوما احتسابا وتصنع الخير وتنشره احتسابًا ، فنعم المالُ الصالحُ للرجلُ الصالح.

روَى الإمامُ أحمد ﷺ فِي مسندِه بسندِهِ قَالَ سَمِعْتُ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ يَقُولُ بَعَثَ إِلَىَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « خُذْ عَلَيْكَ ثِيَابَكَ وَسِلاَحَكَ ثُمَّ ائْتِنِى » فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ فَصَعَّدَ فِىَّ النَّظَرَ ثُمَّ طَأْطَأَهُ فَقَالَ : « إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَكَ عَلَى جَيْشٍ فَيُسَلِّمَكَ اللَّهُ وَيُغْنِمَكَ وَأَرْغَبُ لَكَ مِنَ الْمَالِ رَغْبَةً صَالِحَةً ».

قَالَ: قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا أَسْلَمْتُ مِنْ أَجْلِ الْمَالِ ، وَلَكِنِّى أَسْلَمْتُ رَغْبَةً فِى الإِسْلاَمِ وَأَنْ أَكُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « يَا عَمْرُو نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ ».

هل لك أن تعتكف في تفهم قول سيدنا عمرو ﷺ :« يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا أَسْلَمْتُ مِنْ أَجْلِ الْمَالِ ، وَلَكِنِّى أَسْلَمْتُ رَغْبَةً فِى الإِسْلاَمِ وَأَنْ أَكُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ »

إياكأن تعجل ن فتفارق مقالته قبل أنتتضلع بما فيها من الهدَى ، أتفقه قوله ﷺ : « وَأَنْ أَكُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ » إنّه علو الهمة ،وسموّ الطلبة، والبغية، فهل لك أن تقولها: " إنّي ما أطلبُ العلم لدنيا لكنّي أطلبه لأكون مع سيدنا رسول الله ﷺ ."

وتبصّر قول سيدنا رسول الله ﷺ : « يَا عَمْرُو نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ ». وما في هذا النبأ الشريف منحث عن أن يكونَ المالُ الصالح لنا نحن المسلمين لا لغيرنا،فتركه في أيدي غير المسلمين دون أن نحوزه نحن بالحسنَى من العِصيان ما فيه، وفيه – أيضًا - ظلمٌ لهذا المالِ الصالح أن يكونَ في حوز غير المسلم ، فانصره واجعله بالحُسنى في حوزتك مسلمًا تقيًّا لا طَلِبَةً وَبُغيَةَ لك إلا مرضَاة ربّك ﷻ .

إنما خلقت الدنيا بنعيمها لك مسلما يقول الحقّ ﷻ : « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ

رَوَى التِّرْمُذِيّ في كتاب العلم من سننهِ بسندِه عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضِيَ الله عنهما عَنِ النَّبِىِّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ « مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا لِغَيْرِ اللَّهِ أَوْ أَرَادَ بِهِ غَيْرَ اللَّهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ ». ,رواه ابنماجه في مقدمة سننه اللَّهِ أَوْ أَرَادَ بِهِ غَيْرَ اللَّهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ ».(١)

وفيه بسنده عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ الله عَنهما - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ « مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُمَارِىَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ لِيُبَاهِىَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيَصْرِفَ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ فَهُوَ فِى النَّارِ ».

إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣) »[الأعراف]

ويقول ﷻ : « اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) » [الجاثية]

١) وتبوأ أي اتخذ مكانًا يقيم فيه. .

وقوله ﷺ :« فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ له وجوه

الأول : أن تكون صيغة «فليتبوّأ» على حقيقتها، فيكون أمرًا للأهانة والتهكم والتهديد معًا، ، فقد تكون الصيغة لمعانٍ عدة مجتمعة لا تتناقض ولا تتعاند، فإن النكت البيانية لاتتزاحم .

والثاني أن تكون الصيغة أمرًا أريد به الخبر أي سيتبوّا مقعده من النار.

والثالث أن تكون الصيغة "دعاء" عليه ، وهو مستجابٌ . وكفى أن يكون دعاء على فاعله ممن أرسله الله رحمة للعالمين .فلولا أن فعله هذا بالغ الضر بالأمة ما دعا عليه سيدنا رسول الله ﷺ بهذا . فهو بالغ التنفير من التردّي في هذا الفعلِ البغيضِ.

وكلُّ وعيدٍ على غير الكفر يحتمل أن يعفو الله تعالى عن مرتكبه إن أرد الله تعالى ذلك، كما أن دخول المسلم النار على كبيرة هو غير مؤبد، فإنه برحمة الله تعالى سيخرج منها من بعد أن وفي ما عَلَيهِ . فهل الكبائر من المسلمين إذا ما عوقبوا بالنار لا يخلدون فيها ،بل يخرجون منها إن شاء الله تعالى برحمته.

إنَّا بحمد الله تعالى لا نعتقد أنّ المسلم صاحب الكبيرة كافرٌ ، مخلد في النار كغيرالمسلم، بل هومسلم عاصٍ أو فاسق ، ولكن مآله إلى الجنةِ إن شاء الله تعالى

ولما كان طلب العلم جليلًا لا ليكون إلا مرضَاة لله ﷻ كان من عدلَ به عن ذلك ، فطلبه لغيرِ الله تعالى مرْدُودًا مَنْبُوذًا يومَ القِيامة، يردّ عليه طَلَبَه العلم وتعليمه، وذلك هو الخُسرانُ المبينُ.

رَوَى مسلمٌ في كتاب «الإمـارة» بسنده عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ قَالَ : تَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ فَقَالَ لَهُ نَاتِلُ أَهْلِ الشَّامِ : أَيُّهَا الشَّيْخُ ، حَدِّثْنَا حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : نَعَمْ ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ :

« إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِىَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِىءٌ. فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ ، فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِىَ فِى النَّارِ.

وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ ، فَأُتِىَ بِهِ ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ ، فَعَرَفَهَا قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ :تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ ، وَعَلَّمْتُهُ ،وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ. وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ. فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ ، فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِىَ فِى النَّارِ.

وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ ، فَأُتِىَ بِهِ ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ ، فَعَرَفَهَا قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ . قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ. فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ ، فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ، ثُمَّ أُلْقِىَ فِى النَّارِ ».

كلُّ الَّذِي مضَى فيه ما يَكفِيك ويغنيك، لتكطون الحذر من أن تطلبَ العلم لغيرِ اللهِ تعالى ، فكأن في هذا ضربًا من ضروبِ الشرك.

والله ﷻ قد أمرَنا أن نعبدَه مُخلصِين له.

قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥)[الأنعام]

«قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠) »[الأعراف]

«قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) » [الكهف]

« بِسْمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيمِ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣)» [الزمر]

« هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤)

رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) »[غافر]

« اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥)»[غافر]

«وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ » [البيّنة: ٥]

روى التِّرمذي في كتاب «العلم» من سُننِه بسندِه عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ « نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِى فَوَعَاهَا وَحَفِظَهَا وَبَلَّغَهَا فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ. ثَلاَثٌ لاَ يُغَلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ إِخْلاَصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ وَمُنَاصَحَةُ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَلُزُومِ جَمَاعَتِهِمْ فَإِنَّ الدَّعْوَةَ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ ».

والإخلاص لا يحاجزك عن أن تظهر عملك للنَّاسِ إذَا كان قصدُك من أظهاره أن يقتدوا بك لا أنْ تُحقق في نفوسهم منزلةً لك. فإن الله يُحب أن يرَى أثر نعمته على عبده،ومن نعمِه أن وفّقك للعملِ الصَّالح المُتقن، فأظْهره إنْ كنتَ مليك نفسِك مسيطرًا عليها ، متحصِّنًا مِن تدسّس الشّيطان ، ومن محبة أن يُثْنَى عليك ،وأن تُمدَح إن في محضرِك أو مغيبنك.

يقُول ابنُ القيم ﷺ (ت٧٥١هـ) :« لَا يجْتَمع الْإِخْلَاص فِي الْقلب ومحبة الْمَدْح وَالثنَاء والطمع فِيمَا عِنْد النَّاس إِلَّا كَمَا يجْتَمع المَاء وَالنَّار

والضب والحوت ،فَإِذا حدثتك نَفسك بِطَلَب الْإِخْلَاص ، فَأقبل على الطّمع أَوَّلا ، فاذبحه بسكين الْيَأْس ، وَأَقْبل على الْمَدْح وَالثنَاء ، فازهَد فيهمَا زهد عشّاق الدُّنْيَا فِي الْآخِرَة ، فَإِذا استقام لَك ذبح الطمع والزّهد فِي الثَّنَاء والمدح سَهل عَلَيْك الْإِخْلَاص .

فَإِن قلت : وَمَا الَّذِي يسهّل عَليّ ذبح الطمع والزهد فِي الثَّنَاء والمدح ؟

قلت : أمَّا ذبْح الطَّمع ، فيسهله عَلَيْك علمك يَقِينا أَنه لَيْسَ من شَيْء يطْمع فِيهِ إِلَّا وبيد الله تَعالى وَحده خزائنُه لَا يملكهَا غَيره وَلَا يُؤْتى العَبْد مِنْهَا شَيْئا سواهُ

وَأمّا الزّهد فِي الثَّنَاء والمدح ، فيسهله عَلَيْك علمك أَنَّه لَيْسَ أحد ينفعُ مدحُه ويزين ويضر ذمّه ويشين إِلَّا الله وَحده ، كَمَا قَالَ ذَلِك الْأَعرَابِيّ للنَّبِيّ ﷺ : "إِنَّ مَدْحِيَ زَيْنٌ ، وَذَمِّيَ شَيْنٌ "،فَقَالَ ﷺ « ذَلِك الله ﷻ»

فازهدْ فِي مدْح مَن لَا يزينُك مدحُه ، وَفِي ذمّ من لَا يشينُك ذمّ .

وارْغب فِي مَدْحِ مَن كُلُّ الزَّينِ فِي مدحِه وكلُّ الشّين فِي ذمّه .

وَلنْ يُقدَر على ذَلِك إِلَّا بِالصّبرِ وَالْيَقِينِ، فَمَتَى فقدْتَ الصَّبْر وَالْيَقِينَ كنْتَ كَمن أَرَادَ السّفر فِي الْبَحْر فِي غير مركب .

قَالَ تَعَالَى:« فَاصبْرِ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلايَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ»[الرّوم :٦٠]

وَقَالَ تَعَالَى « وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ»[السجدة: ٢٤] ([١])

([١]) الفوائد. ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (ت: ٧٥١هـ)

وحقٌ عليك - طالب علم- أو بعبارة أصدقُ وأوفق طالب التَّأهُلِ لأنْ تحومَ حولَ حِمَى مقامِ وراثةِ النَّبيّ ﷺ أن تشغل قلبك بغيرِ اللهِ ﷻ فإنّه كما قيل : « كيف يُشرقُ قَلْبٌ صُوَرُ الأكوانِ مُنْطَبِعَةٌ في مرآته ؟

أمْ كيف يرحلُ إلى الله وهو مكَبَّلٌ بشَهواته ؟

أم كيف يطمع أن يدخل حضرةَ الله وهو لم يتطهَّر من جَنَابَةِ غَفَلاتِهِ ؟

أم كيف يرجو أن يفهم دقائقَ الأسرارِ وهو لم يَتُبْ من هَفَواتِهِ ؟»

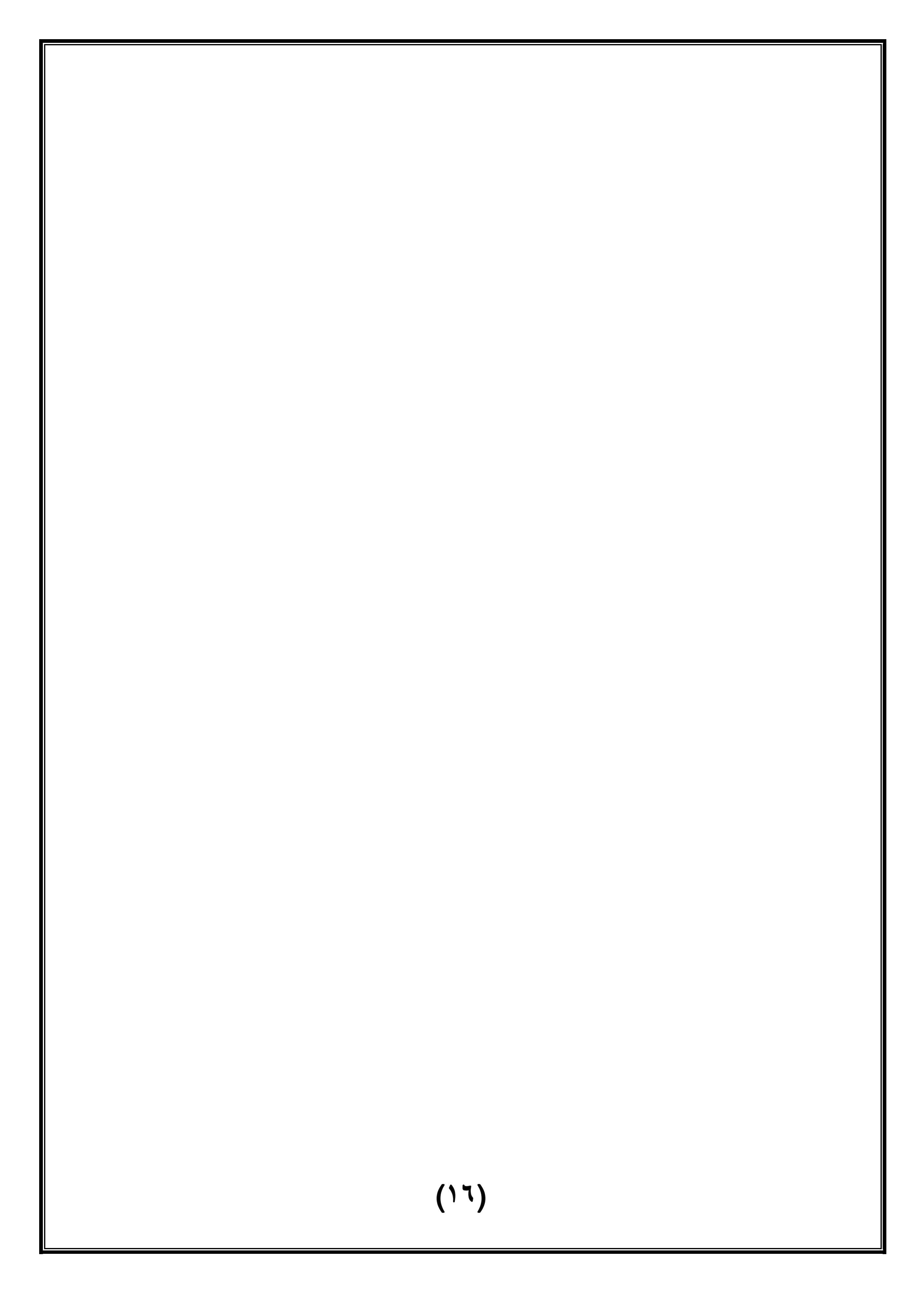
فإن الله « سُبْحَانَهُ أَبى أَن يَجْعَل ذخائره فِي قلب فِيهِ سواهُ وهمّته ومتعلقة بِغَيْرِهِ وَإِنَّمَا يودع ذخائره فِي قلب يرى الْفقر غنى مَعَ الله والغنى فقرا دون الله والعز ذلا دونه والذل عزا وَمَعَهُ وَالنَّعِيم عذَابا دونه وَالْعَذَاب نعيما مَعَه وَبِالْجُمْلَةِ فَلَا يرى الْحَيَاة إِلَّا بِهِ وَمَعَ الْمَوْت والألم والهم وَالْغَم والحزن إِذا لم يكن مَعَه فَهَذَا لَهُ جنتان جنَّة فِي الدُّنْيَا مُعجلَة وجنة يَوْم الْقِيَامَة»([1])

بسطتُ القولَ في هذا لِما لتحقيق الإخلاصِ فِي الأقوالِ والأفعال والأحوالِ ظاهرها وباطنها من أهمية بالغة ، فهي كحجر الأساس ، يبنى عليه كلُّ شيءٍ، فمن حرمه ، فقد حرم الخيرَ كله،والله تعالى هوالمستعان على ما يُرضِيه



الناشر: المكتبة القيمة – القاهرة (ط:١) عام ١٤٠٠هـ ص:١٤٧

[1]) الفوائد لابن القيم(م.س) ص١٩٠



[عظيمُ فضلِ طلبِ العِلمِ علَى كُلِّ مَطْلُوبٍ]

أنتُمْ – شَبيبةَ الإسلام - نَفرْتُم مِن دياركمْ وأقوامكمْ مهاجرين ؛ لتطلبُوا ما يُعينُكم على أن تحُوموا حولَ حِمَى وراثة رسُولِ الله ﷺ

ومن كانت تلك طلبته فإنّ الله ﷻ يبعثُ مَلاَئِكَةً تَضَعُ أَجْنِحَتَهَا على جنباتِ طريقِه إلى مطلبِ العلم رِضًا بما هو صَانعٌ .

روى ابو داود والتِّرمُذِيُّ وأحمد في مسنده بسندهم عن سيدنا أبي الدرداء ﷺ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ .

وَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ .

وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِى الأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِى جَوْفِ الْمَاءِ.

وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ .

وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا ، وَرَّثُوا الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ ».

[قِراءةٌ عَجْلَى في هذا البيان النَّبَويِّ]

هذا النّبأ الجليلُ من سيّدِنا رسولِ الله ﷺ منْ أجلّ ما يُعينك حسنُ تلقيه فهمًا عن سيدِنا رسول الله ﷺ على أن تحققه فيك، وأن تتحقّق بِه ، فتكونُ بلسانِ حالِك تبيينًا عمليًا شهوديًّا لما اشتمل عليْهِ مِن دقيقِ المعانِي الإحسانِية ولطيفها.

حقّ علَى كلِّ طالبِ علمٍ ليكون وريثًا أن يعتكفَ مستبصِرًا مُتدبِّرًا فِي محرابِ هذا الحديثِ النّبويِّ الشَّريفِ، فإنَّ لك فِيه مِن دقائقِ المَعاني الإحسانِية ولطائِفها مَا يَحفِزُك على أن ترغَبَ عَن كلِّ مَا ليْس ممَّا أنتَ نافرٌ إليْه ومهاجرٌ في سبيلِ تحقيقِه مِن طلبِ العلم النّفيعِ ؛ ليكونَ زادَك فِي سَفرِك إلَى مَقامِ " وراثة رسولِ الله ﷺ

هذا النَّبأ الكُليّ الشَّريف قائمٌ مِن خمسةِ أنْباءٍ نُسِقَتْ عَلَى نَحْوٍ مُتصاعِدٍ ممَّا يُوجِبُ عَليْك أن تَتَبصّرَه واحدًا واحدًا، فلا تَرتقِي إلى التّالِي إلّا مِن بعدِ أن تتضلَّعَ بما فِي السَّابقه من جليل معاني الهُدَى الإحسانيّة والنُّورانيّة:

« مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ .

وَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ .

وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِى الأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِى جَوْفِ الْمَاءِ.

وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ .

وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ ».

بدأ ﷺ كمَا ترَى بِمبدإِ الأمْرِ:

« مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ .»

أوّلُ ما يلقاك أن جاءَ ﷺ به على سبيلِ الخبرِ الحاملِ بُشرَى بالحُسْنَى، ممَّا يهدِي إلى أنّه مُتضمِّنٌ أمرًا بتحقيقِ ذلك ، كما هو معهودُ

اللّسان العربيّ أن يُؤمَر بالفعلِ مِن خلالِ الإخبارِ عَنه أوْ الفاعلِ بالحُسنَى إغراءً لَك أن تفعلَ علَى كمالِ الفِعلِ، فتدخلُ فِي المُخْبَرِ عَنْه بتلك الحُسنَى، وفِي هذا مِن الإغراءِ والحثّ ما لا يتناهَى ،

وفيهِ – أيضًا- إيماءٌ إلَى أنّك عقيلًا إنْ سَمِعتَ ذلك الخبرَ ، فَلَسْتَ بحاجةٍ إلى أن تُؤمَر بفعلِه للقّانيّتك ، وَعُلُو هِمتك وتَطَلُّبك للمعالِي ، وصِدْقِ عَزيمتِك ، فَما إن يُذكَرُ لك أمرٌ جليلٌ إلّا وسعيْت حثيثًا إلى أن تكونَ مِن أصحابِه، كذلِك يُريك عُلُوَّ قَدْرِكَ عِنْدَهُ، فَيَأبَى عَلَيْك عَقْلُك إلّا أنْ تَكُونَ حَيْثُ ظَنّ بِك سَيّدُ المُرسلين ﷺ

قُلْ لِي : أو بملكِك أن يَظنّ بِك سيُّدُ المُرسلين أنَّك علَى شَيْءٍ مِن الحُسْنَى ثُم لا تكونُ؟

وفيه - أيْضًا - تعريضٌ بمَن سمِع الخبرَ بالحُسنَى عَن الفعلِ أوْ فاعلِه ، ثُمَّ لَم يُبادِرْ إلَى أن يكونَ ذلِك الفاعلَ .

أرأيتَ كيفَ يَدْعوك إلَى الحُسنَى ؟

أوَ لَيْس هُو الّذِي قال له ربه ﷻ :« فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ »[آل عمران: ١٥٩]

أوَ ليْس هُو الّذِي قال فيه ربّه ﷻ :« لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ» [التوبة: ١٢٨]

وقال له ﷺ :« وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)» [القلم]

أرأيْت كيْف يَسُوسُنا إلى الحُسْنَى ؟ فهلْ لِي ولك أنْ نتعلَّم ، ونتفدِي ونتأسَّى ، فنسوسُ أنفسَنا أقومنا إلى الحسنى بالرّفقِ وَالمحبّةِ .

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا »[الأحزاب: ٢١]

أعربَ ﷺ بقولِه : «مَن» إيماءً إلى عمومِ السَّالك ، لمْ يقيدْه بنَوعٍ أوْ عِرقٍ أوْ مكانٍ أوْ زمانٍ ، جعلنا جميعًا فِي هذا سواءً، فليْس من فرْقٍ بيْن رجلٍ وامرأة، وكبيرٍ وصغيرٍ فكانَ في هذا دعوةٌ أن تسلُك طريقًا تطلُب علمًا.

وتبصّر قوله «سلك» الدَّالّ على التَّتابع ، فلا يشغلُه عن المتابعة شاغلٌ من عرضِ الدّنيا.

وأعربَ بقوله « طَرِيقًا » إيماء إلى أنّ لك فيه سلفًا فهو مسلكٌ مَطرُوقٌ حتّى لا تستوحش ، وحتى لا تكونَ من دون من سلكه قبلُ ، فوفَّاه حقّه ، فوفاه الله ﷻ ما وعدَه به ، وكلّ ذلك يحمِلُ لك حفزًا وحثًا ،ويقيم فيك فتوةَ عزمٍ علَى أن تَمضِي فتيًّا إنْ أنْت فُوجِئتَ بكُدْيةٍ ، فاصطفاء قوله «سلك طريقًا» مترع بجليل المعانِي .

أوَ ليْس الّذي قالَه سيّد المرْسلين. فكيفَ لا يكونُ الّذِي بِه نطقَ لسانُه الشّريفُ مكتاثرَ العطايا ؟

وهنا يُبِينُ ﷺ عَن الباعثِ على سلوكِ هذا الطَّريقِ بقولِه ﷺ :« يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا » تدبَّر قوله ﷺ : « يَطْلُبُ» وكأنّه أشبه بمَن يطلبُ صيدًا شرودًا نفورًا مِمَّا يستوجِبُ الاجتهادَ والاعتناءَ ومِن قبلُ الخِبرةَ بفُنونِ الطَّلبِ وامتلاكِ أدواتِه ، والتَّحلّي بأدبِه مِن الاصطبارِ وصدْقِ العَزْمِ علَى تَحقِيقِ النُّجْحِ .

مِن هُنا تدرِك شيْئًا مِن استحقاقاتِ طلبِ العلم، فحِلْيتُك «طالبُ علمٍ» حِليةُ النّبلاء ، وَلا يَستحِقُّها إلّا مَن كان علَى ما ذكرتُ لَك قبلُ مِن استحقاقاتِ الطَّلبِ.

غيرُ قليلٍ مِمّن نُعت فِي زَمانِنا بأنّه «طالبُ علمٍ» لا تجدُ استحقاقات الطّلبِ حاضِرةً فيه ، بلْ رُبَّما لا يَكادُ يَعرِفُ هو هذِه الاسْتحقاقاتِ ، ممَّا جعلَ هذِه الْحليَة :«طالب علم» مفرغةً من معناها .

وتبصَّر ما في قولِه ﷺ «علمًا» وما في هذا التّنكير من دلالة على التّعظيمِ ، وأنَّه الأحقُّ بأن يُسَمَّى «علمًا» ليس كلُّ ما تُعَلّمُ أو تَتَعَلّمُ بنفسِك جديرٌ بأنْ يُسمّى علمًا.

مَفهومُ العِلمِ في الإسلامِ لا يتحقّقُ إلّا فيما كان به إخراجُك أنت أوّلًا ثُمَّ قومِك وأمّتِك مِن الظّلماتِ إلى النّور .

كلُّ ما لا يَتَرتَّبُ عليْه عملٌ صَالحٌ مُصلحٌ صَانعَه وقومَه وأمَّتَه ليْس بعلمٍ في الإسلامِ، وليْس صَانعُه بعالِمٍ .

قولُه ﷺ : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ »[فاطر: ٢٨] إنّما يُرادُ بِهِ كُلُّ مَن كَانَ عِلمُه مُرتّبًا عَلَيْه عَملٌ صالحٌ مُصلِحٌ مُخْرِجٌ مِن الظُّلُماتِ إِلَى النّور أيًّا كانَ نَوْعُ ذلِك العلم.[1]

ليْس الاعْتدادُ بنوعِ العِلمِ ومقدارُه ولطفِه وطرافتِه وجدَّتِه وخصوصيَّته . كلَّا. إنّما الاعتدادُ بأثرِه الإصْلاحِيّ المُخْرجِ مِن الظُّلماتِ إلى النّور.

---

[1]) جاء قوله تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ»[فاطر: ٢٨] أسلوب قصرٍ بـ«إنما» قصر صفةٍ على موصُوف قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًا، نظرًا لخصوصية قوله «يخشَى» فهو أخصّ من قولنا «يخاف» فالخوف مطلقٌ سواءً كان الخائفُ عَليمًا بما يخافُ منه أوْ غيرَ علِيمٍ ، بيْنا " الخشية" لا تكون إلّا خوفًا ممّا يعلم الخائفُ شأنَه.

والعلماءُ وحدَهم هم الّذين يعلَمون شأن اللهِ ﷻ ، فلا تتحقّق هذه الخشية إلّا منهم . فإنْ رأيت من يقول : إنَّ القصر قصرٌ صفةٍ على موصوفٍ قصرًا حقيقيًا ادعائيًا للمبالغة ، واعتبار خشيةِ غيرِ العلماء كلا خشية نظرًا لعلوّ شأنّه خشية العلماءِ علَى خشية غيرِهم ، فإنَّ ذلك آتيه مِن أنّه لم يستحضر ما بيْن «الخوفِ» و«الخشية»

وتأمّل اصفاء «إنّما» دون (ما وإلاّ) إيماءً إلى أنّ مدخولها أمرٌ من شأنه ألّا يتوقف فيه فضلًا عن أن ينكر، فمن توقّف فقد عمّي عَلَيهِ ، فأقام الحقائق مقام المشكوك ؛ لضعفٍ فِي البَصيرةِ .

والعِلْمُ الَّذي اسْتعاذَ بِالله ﷻ سيّدنا رسُولُ اللهِ ﷺ في قوله : « اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ وَمِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ وَمِنْ دَعْوَةٍ لاَ يُسْتَجَابُ لَهَا ».[مسلم: الذّكر والدّعاء والتَّوبة]([1])

إنّما هُو ذلِك الَّذِي لا يَترتَّبُ عليْه عَمَلٌ صالحٌ مُصلحٌ مُخرِجٌ من الظّلماتِ إلى النّور ، وإن كان مجالُه بيانَ الوَحي قرآنا وسنةً ، فكَمْ منْ مدارساتٍ موسّعةٍ في بيانِ الوَحي لم يُرتبْ عليْها صانُعها عَملًا صَالحًا مُصلِحًا مخرجًا مِن الظُّلماتِ إلى النور ، لا لأمَّتِه ، ولا لِقومِه بَلْ ولَا له هُوَ ، فمثلُ هذا علَى صَاحبِه رَدٌّ ، يُسْتعاذُ باللهِ ﷻ مِنه ؛ لِعظيم ضُرِّهِ الّذِي لا يُطاقُ ، والّذِي لا يَقِي مِنْه إلا اللهُ ﷻ .

وفي قَوله ﷺ «فيه»:(يَطلبُ فيه) دون قولنا (يطلبُ علمًا)إيماءً إلى أن حقًّاأن يكونَ ليس له في طريقه طلبةإلا العلم، فهو في طلريقه غير مشغول بما هوإلى العلم من حسن خلقٍ وحسن تزلفٍ إلى الله تعالى،واتقاء تأثير العامة الدهماء عَلَيْهِ بِما يكونُ منهم ممًّا لا يليق . فطالبُ العِلم في زماننا هذا يتعرّضُ في طريقه لكثيرٍ ما يكونُ من العامّة من سيِّء الأقوال والأقوال والأحوالِ ، فحقٌّ أن يَسْعَى طالبُ العِلم أن يكونَ في طريقِه إلَى العلمِ فِي عُزلةٍ نفسيّة وعقليّة ممًّا يَراه ويَسمعه منْهم.

ثم تبصَّر عقبَى مَن سَلَكَ طريقًا يطلبُ فيه عِلمًا. عقباه أبان عنْها سيّدنا رسُولُ الله ﷺ بقوله :« سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ »

---

[1]) فِي استعاذته ﷺ بالله ﷻ من هذه المذكورات إيماءٌ إلى عظيم خطرها ، وأن العبد لا طاقة له بنفسِه أن يتقيّ نكالها، وليس من عاصمٍ منه إلا اللهَ ﷻ .

وحق عليك طالبَ علم لنفسِك أن تستقرئَ ما استعاذَ بالله ﷻ سيدُنا رسُولُ الله ﷺ ، وأن تنسقه ، وتصنفه وفق مجالاته ، لِتتبين عظيم نكلها، وأثرها السُّوءَى عليك، وعلى الأمة.مِمّا يجعلُ اتقاءَها فريضةً عينٍ على كلِّ واحدٍ من الأمّة.

لو لَم يكنْ في هذه العُقبَى مِن مغرٍ بحَوزها وتحصيلها سوَى قوله ﷺ «سَلَك الله بِه» مسندًا الفعل «سلك» إلى اسمه الأعظم «الله» لكفى جزاءً

أن يكونَ الله ﷻ بك سالكًا فذلك هو العطاء الأجلّ.

واحذر في فقه هذا التَّجسيمَ والتشبيه والتّمثيل ، وتلق القول على ما نطق به ﷺ، ولا تشغلنَّ قلبك بطلب الكيفِ ، فذلك ليس مما أنت به مكلف، وذلك ليس مما أنت عليْه مقتدر، وذلك مما لا يترتبُ عليْه عمل . إنما يُطلبُ الكيف ليصنع مثله، وما من أحدٍ من العالمين بأهلٍ لأن يصنع مثله، فلم يطلبُ الكيف؟

السائلُ عن الكيف أدنَى أمرِه أنّه سأل عَن علمٍ لا يترتب عليْه عملٌ ، فكان طلبه عقيمًا، فكيف والسؤال عن الكيف منهيّ عنه.

هل لك أن تلتفت إلى قولِه «به» وأن تستجر جلال المعيّة الربانية وجمالها . لو لم يكن لك من سلوكك طرقًا إلى العلمِ إلا هذا لكفاك بل أغناك، بل أغنَى بِك.

وفي قولِه ﷺ : « سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ » أفهمُ أنّه ﷺ يُنَبّؤنا أنّا لا نسلُك طريقًا إلى عَرضٍ مِن الدّنيا . أنْتَ إذ تخرُجُ مِن دارِك ، وإن شَطنَ إنّما أنت سالكٌ طريقًا إلَى "الجَنَّة" .

جعَل المّحلّ الّذِي تطلبُ فيه العلم "جنّة" وعليْك أن تَتصوَّر بفؤادِك الرَّشيدِ ما الَّذي يكونُ لكَ فِي الجَنَّة ، فاجعلْ كلَّ ما أنتَ واجدُه مِن العلمِ في هذِه الجنّة هو النَّعيمُ الَّذِي لا يَرغَبُ عنه إلّا مَن سَفِه نفسَه .

لِتستمتِعْ بما يكونُ لك من دقائقِ العلم النَّفيع وطرائفه اسْتمتاعَ أهلِ الجنة بنعيمها.

حذارِ أن ترغبَ عن ذلك. وتشغِلَ بما هو دونه. إنْ أنْت لم تذقْ ما حصَّلتَ من علمٍ ، واستمتعتَ به استمتاعَك بشهيّ المأكلِ والمشربِ ، فاعلمَنَّ أنَّ فِي قلبِك مِن العوائقِ ما يَمنع من ذلك ، فاسْع إلى أن تتطهّر منه ، أمِط الأذَى عن طريقِ فؤادِك ، فهذا حقُّه عليْك ، وأنت عنه يومَ القيامةِ مسؤولُ.

وسيدُنا رسولُ الله ﷺ يقُولُ فيما رواه أبو داود في كتاب«الزَّكاة» من سننه بسندِه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بن العاص رضِيَ الله عنهما قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ ».

وفي روايةٍ للنّسائِي في السُّنن الكبرى، والحميدي في مسنده الحاكم في " المستدرك" :« كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أن يُضَيِّعَ مَن يَعولَ»

وفؤادُك ممَّا تَقوتُ وتُعولُ، وإنّما قوتُه دقائقُ معانِي الهدَى الإحسانية النّورانية والأعمالُ الصَالحة المصلحة.

أرأيت كيفَ يُغريك، يحثُّك ، ويَستفزِّك ؛ لِتغدُو فِي طَريقك لا تلْوِي على شيْءٍ من عرضِ الدنيا.

لِتمضِ ، وإنْ بعُد بك الطَّريق إنّما أنت تسوق نفسَك إلى الجَنَّة . أرايت ؟ تذوق هذا واستطعمه.إنّك إنْ فعلتَ ، فلن تجِدَ فِي دنياك ما هُو أَوْلَى مِمّا أنت فيه ، لا أقولُ لك سعيُك إلى مجلسِ العلم كلّا ، إنّما هُو سعيك إلى الجنَّة ، أوَ يَليقُ بِك وَأنتَ تسعَى إلَى الجَنَّةِ أن تكونَ علَى حالٍ لا يرضاها ربّك ﷻ ، فاحذر .

وكلَّما حدَّثتْك نفسُك بشَيْءٍ مِن الدُّنيا وأنتَ في طريقِك إلى هُنا : إلَى مجلسِ العلمِ ، لا، بلْ إلَى الجَنةِ ، فاصرِفْها عَن ذلِك ، واشغلْها بذكْر الله ﷻ وبالصَّلاة والسّلام على رسُولِه ﷺ ، فتكونَ أنت الذاكرَ

وأنت المذكور، وتكونَ أنت المصّلي المسلِّم، وأنت ـ أيضًا ـ المصَلّى عليْه من ربّه ﷻ والمسلّم عليه من سيد المرسلين ﷺ

أتَرَى أجلَّ عطاءً من هذا؟ أثَم نعيمٌ أجلّ وأمجدُ وأحمدُ من ذلك النَّعيم ؟

أَعلِمْتَ كيْف يكونُ حالُك فِي مَقدَمِك إلَى مَجلِس العلم : إلَى جنةِ الله تَعَالى فِي الدّنْيا، ومن سَعَى بنفسِه في الدُّنيا إلى جنّته في الدُّنيا : مجالس العلم النّفيع الشريفِ سعَتْ به الملائكةُ فِي الآخرةِ إلَى الفرْدوس لِيلْقَى سيّدَنا رسُولَ الله ﷺ فيها .

« وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ★ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ » [الزُّمَر:٧٣ - ٧٤]



ثُمّ يأتِيك النَّبأُ الثّاني :

« وَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ »

نبأٌ يصوّر لك عظيم احتفاء الملائكةِ بك حالَ سَعيك إلى مجلسِ العلمِ النفيعِ ، ويبرِزُ لك هذه الملائكة في صُورة كأنَّها تسْجدُ لك ، كما سَجدتْ لأبيك آدم عليه السلام

جاء به مؤكدًا بـ«إنَّ»وبـ«الّلام » لمّا كان هذا أمرًا جليلًا جديرًا بأن يقومَ في فؤادِك لا يغيبُ ولا يغيم ، حاضرٌ في وعيك وأنت في سعيك إلى مجلس العلم ، فحقّ أن تشغل فؤادَك بتصوّر هذا المَشهدِ الجليلِ المَهيبِ لتُشْغلَ به عمَّا قد يَعترضُك في طريقك مِن زُخرُف

الحياةِ الدُّنيا، مركبًا أو مسكنًا أوملبسًا ونحوذلك ، فيُشغلُ قلبُك بذلك الزُّخرُفِ ، فيكون أثرُه الوَبيلُ فيه نجيعا نقيعًا .

إذا ما خايلك شيْءٌ مِن زُخرُف الحياةِ الدُّنيا ، فبادِرْ إلَى تصوّر الملائِكة علَى جنباتِ الطريقِ تضعُ أجْنِحتها لك رضًا بسعيك .

وازن أي الأمرين إليْك أحبُّ . إن كنت عقِيلًا حكيمًا . إنّك - لا محالة -
في ما عليْه الملائكة أرغبُ ، وبه أشرحُ صدرًا .

واحرصْ على ألّا تلقِي بك نفسك في حمْأَة التّأويل لقوله ﷺ « لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا » الأحقُّ أنّ ذلك حقيقةٌ لو كُشف الغطاءُ عن بصيرتك لرأيْتها رأي عين كذلك.

لا تجعلَنَّ لمادّية إدراكك سلطانًا على ذلِك الغيبِ، فذلك لا يتردّى فيه إلّا مَن حسبَ أنَّ اللهَ ﷻ عاجزٌ عَن أن يكونَ لك ذلك ، أوْ حَسِبَ أنّك ساعيًا في طلبِ العلم النَّفيع أقلُّ من أن يجعلَ لك ذلِك.كلّا. إنّ الله ﷻ هو القدير على ما يريدُ، إنّك ساعيًا في طلبِ العلْمِ النّفيعِ أَهلٌ لأن يكونَ لَك مِن اللهِ ﷻ ذلك، وفوقَ ذلك .

أليس أجلّ من ذلك أن جعلَ في قلبك كتابَه؟ أيُّهما أجلّ وأعظمُ : أن تضعَ الملائكةُ أجنحتَها لك في طريقِك رضًا بسعيمك أم أن يضعَ الله ﷻ كلامَه في فؤادك.

ذلك المشهدُ إنّما هُو الحَقيقةُ المطلقةُ ، وإنَّ حقَّها عليك ألّا تُؤَوّلَها إلَى ما يُطْفِؤُ نورَها فِي فؤادِك الرَّشيدِ. جاء بهذا النَّبإِ عَقبَ النَّبإِ بأنّك فِي سَعْيِكَ إلَى مَجلِس العِلمِ النّفيع تسعَى في طريقِ الجَنَّة ، وأنَّ طريقَك هذا إنّما هُو طَريقُك إلَى الجَنّة، فاستمتعْ بِسَعْيِكْ. وبَنَي علَى هَذا مَا سَيكُون لَك مِن الحَفاوَةِ فِي طَرِيقِكِ

★★★★★

ثُمّ يأتِيك النَّبأ الثّالثُ :

« وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِى الأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِى جَوْفِ الْمَاءِ»

وإذا ما كُنْتَ فِي سَعْيِكَ إلَى مَجلسِ العِلْم النَّفِيعِ تَحتفِي بِكَ الْملائِكَةُ وَاضِعَةً – على الحقيقةِ - أجْنِحَتَها رِضًا بِما أنْتَ تَصْنَعُ ، فإنّ لَك مَا هُو فَوْقَ ذلِك.

تَصاعَدَ بِكَ فِي تَصويرِ العَطاءِ لَك إذ سَعيْتَ فِي طَلَبِ العِلْمِ ، وَصَبَرْتَ وَصابَرتَ ورابطتَ واتَّقَيْتَ فَكُنَت مِن المُفلِحين ، فأصْبَحتَ مِمَّن يُسْعَى إلى مجلسِ علمه ، فكُنتَ عالمًا ربّانِيًّا تَنْشُدُ وِراثَة سيّدِنا رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي إخراجِ النَّاسِ مِن الظُّلُماتِ إلَى النُّورِ .

جَعَل لك فِي هذا النَّبإِ الثَّالِثِ فَوقَ الَّذِي كان لَك ساعِيًا إلَى مَجلِسِ العلمِ : جَعَل لَك مَن فِي السَّماواتِ ومَنْ فِي الأرضِ والحِيتانَ فِي جَوفِ الماءِ فِي خِدْمتِك . جعلَهم لَك حفدةً تنشَطُ فِي طلَب المَغفرةِ لك.

ولا تحسِبَنَّ أنَّ المَغفرةَ المَطلوبَةَ لَك مَقصورَةٌ علَى مغفرةِ ذَنْبِك ، فتَتَطَّهَّرَ مِنْه ، فتنْشطَ مِن عِقالِك ، فيكونُ فؤادُك طَلِيقًا بَصيرًا ، كلَا بل هُو أَشمَلُ مِن ذلِك . هُو غَفَرُك مِن كلِّ ما يُمكِنُ أن يُضِيرَك، فتكونَ مغفورًا أيْ محاطًا بما يَعصِمُك مِن السّوءَى، فأنْت فِي حِفظٍ ومَنَعَةٍ مِن شَرّ كُلّ ذِي شَرّ .

قد تحقّق لكَ أمْنُك وأمانُك ، فلا يكونُ ثَم ما يُعيقُك ، ويشغَلُك عَن أداء الرِّسالةِ الَّتِي أنْتَ وارِثُها عَن سيِّدِنا رسُولِ الله ﷺ .

أنْت المَحْفودُ مِن كُلِّ مَن فِي السَّماواتِ ومَنْ فِي الأرضِ ومن الحِيتانِ لِما ينالها من أثر علمِك رحمةً .

أنْتَ المَغفورُ مِن ربّك ﷻ ، والمُحاطُ بسياجٍ منيعٍ لا يَصلُ إليْك ضُرٌّ يُعيقك عَن القيامِ برسالتِك.

وتَبصّرْ قولَه : « مَنْ فِي السّماواتِ ومَنْ فِي الأَرْضِ» وما في ذلك مِن الشّمولِ ، وأحذَرْ أَنْ تَحسِبَ أنَّه لمَّا قال «منْ» لَمْ يدْخُلْ فِيه ما يُقال فِيه «ما» . كلّاً . إنّ ما يُقالُ فِيه «ما» داخلٌ فِي ما يُقالُ فيه «مَنْ» علَى التَّغلِيبِ للأشرفِ ، فدخلَ كلُّ شيْءٍ فِي السَّماواتِ وفِي الأرضِ مِن العالَمين ، ومَا ذاك إلّا لأنَك صَبَرتَ وصَابرْتَ ورابطتَ واتقيْت في سعيكَ لِطلبِ العلم، والاجتهادِ فيه احتسابًا، فكنْتَ مِمَّنْ يُسْعَى إلَى طلبِ العِلم مِن مجالسِه.

أضْحَيْتَ مِمَن يَسْعَى إلَى مجْلسِه يُطلَبُ عِلْمُه بالطَّريقِ إلى ربّه ﷻ .

ولا تحسِبَن أنَّ الَّذِي كانَ لَك فِي النَّبإ الأوّل والثّانِي حِين أضْحَيْتَ عالِمًا ربَّانِيًا قائمًا برسالةِ الوِراثةِ قَد حُرِمْتَ ممَّا كان لك ، وأنْتَ تطلُبُ عِلْمًا ، كلّا ، بل ذلِك لك إلى ما هو لك فِي النَّبإِ الثَّالِثِ ؛ لأنَّك وإنْ كُنْتَ قَدْ أضْحَيْتَ عالِمًا، فَإنّك وأنْتَ عالمٌ إنّما تَطلُبُ عِلمًا - أيْضًا - لَا تَكُفّ عَن ذلِك ، فأنْت عالمٌ وطالبُ علمٍ .

أرأيتَ ذا عقلٍ يُمكنُ أن يرغَبَ عَن أن يَكونَ له ذلِك ؟

هل ترَى في الأرضِ وقد صار هذا حالَك مَن هُوَ أَجَلُّ مِنكَ وَأنْبل ؟ لا يكونُ

أرأيت أحدًا في الناسِ - غيرَ العالم - يستغفرُ له من وفي السموات ومن في الأرضِ ومن في البحارِ والأنهار .

ذلك جزاؤك عالمًا في الدنيا ، وما لك عالمًا في الآخرة أجلُّ وأعظمْ .

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١) »[الأسراء]

★★★★★

ثُمّ يأتِيك النَّبأُ الرّابعُ :

« وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ »

ولمّا كانَ العلم مرادًا لغيرِه متمثلًا في تحقيقِ العَملِ الصَّالحِ المُصلِحِ المُخرجِ مِن الظُّلماتِ إلى النّور ،وكان ذلك العملُ عبادةً يتزلّف بها إلى ربّنا ﷻ كان ذلك مظنّة أنَّ العابد أفضلُ مقامًا من العالِمِ جاءَ هذا البيانُ النّبويّ الشّريفِ لِيقرّرَ الحقيقة : علو فضلِ العالم على العابد : أي علو فضلِ العالم العامل بعلمِه علَى مَن كان عابدًا مخرجًا نفسَه وحدها بعبادته مِن الظّلمات إلى النّور دون أن يكونَ منه إخراجٌ لغيرِه : قومِه وأمَّتِه مِن الظُّلماتِ إلى النّور.

لا تحسِبنّ المفاضلة بيْن عالمٍ غيرِ عابدٍ وعابدٍ غير عالمٍ .

لا فضلَ لعالمٍ غيرِ عابدٍ ، ولا لعابدٍ غيرِ عابد. هذان خارجان عن سياق المفاضلة، ليس لأيّ منهما فضلٌ ، العالم غيرُ العابد لَم يخرج نفسَه بهذا العلم من الظّلماتِ إلى النور، فكيف يُخرج غيرَه. والعابد غير العالم علام يؤسّس عبادته، وهو غيرُ عالم . كلّ عبادةٍ غيرِ مؤسّسة على علم ، كمثل كلِّ علمٍ لا يؤسّس عليْه عملٌ صالحٍ. كلٌّ على صَاحبِه ردٌّ .

المفاضلة هنا بيْن عالمٍ مُخرج نفسِه وقومِه وأمته بعلمِه وأداءِ ما فرضَ عليْه من العباداتِ ، وعابدٍ مخرج نفسِه بما معه مِن علمٍ يؤسس عليه عبادته إلا أنه لم يأخذ بيد آخرين يُخرجهم من الظلماتِ غلى النورِ كما أخرجَ نفسَه ، كان نافعًا نفسَه على قدرٍ ما، ولم يكطن نافِعًا غيرَه.

قلتُ ذلك لأنَّ البيانَ النَّبويّ جعلَ لكلٍّ فضلًا. ولا يكونُ البتة فضلٌ لعابد غيرِ عالمٍ بأصول وضَوابط ما يَعبدُ بِه ، ولا لعالمٍ غيرِ عابد بما علِم.

مناط المفاضلة إذن بيْن رجلين لكلٍّ فضلٌ إلّا أنَّ فضلَ أحدِهما (العالم العامل بعلمه الناشر علمه في النَّاس المُخرج نفسَه وقومَه وأمَّتَه من الظلمات إلى النور) أعلى من فضلِ على الآخر(العابد غيرِ النافِع غيرَه بعبادتِه)

ولمَّا كان مقدار ما بيْنهما من مفاضلة غير محددٍ لِما أنّه مفاضلةٌ بين أمريْن معنويين شبه ﷺ هذه المفاضلة بمفاضلةٍ قائمة بين مُحَسّيْن لا يغيم مقدار المفاضلة بينهما. وهذا منكريم رأفته بنا ﷺ .

قاس المفَاضلة القائمة بيْن العالمِ والعابد بالمفاضلةِ بين الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ .ما بين الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ وسَائِرِ الْكَوَاكِبِ من مفاضَلةٍ لا تجدُ ذا بصرٍ بحاجةٍ إلى تبيانِها .

وتبصّرْ قولَه ﷺ «ليلة البدر» فكان هذا القيدُ زائدًا في تبيين مقدارِ المفاضلة، فهذا التَّشبيه مِن قبيل بيان مقدار وجه الشّبه.

ومن البيّن لكلّ ذِي بصرٍ أنَّ ضوءَ الكواكبِ ليلةَ البدر (انتصاف الشّهر) لا يكادُ يشعر به، لطغيانِ نور القمر .

لمْ يشأ ﷺ أن يقيس المفاضلة بين العالم والعابد بالمفاضلة بين شيئين في الأرضِ . قاسها بما بيْن شيئين في السماء، يكون بها الهدايةُ في الظُّلمات ، فجعل العالم نظيرًا للقمر لا في قوةِ نوره فحسبُ بل وَفي وظيفته وما يكونُ منه للناسِ ،كذلك العالِم، وجعل العابد نظيرًا للكواكب في ضعف نورها وفي قدرِ الاهتداءِ بها.

وكذلك استمدادُ القمرِ نورَه من الشَّمسِ أعظم من استمداد الكواكب، إيماء إلى أنَّ استمدادَ العالم من القرآنِ والسنةِ أعظمُ وأجلّ وانفعُ من استمدادِ العابدِ منْهما. استْمداد العالم استمداد فهمٍ وتدبّرٍ ، يتغورِ البيان سعيًا إلى استحصاد فيوضٍ مِنْها .

فِي هذا التَّشبيه مِن الحَثّ علَى أن يَكونَ كُلَّ سميعٍ رَغوبًا فِي أن يكونَ فِي قومِه " القمرَ ليلةَ البَدر" ولا يَرغبُ عن ذلِك إلّا ساقطُ الهِمة، ولا يجتمعان في فؤادٍ : الإسلامُ وسقوط الهمَّة.

وفي بيانِ الوحي قرآنًا وسنة من الحثّ على عُلوّ الهمّة ممَّا يؤكِّد أنّه مكونٌ رئيس مِن مكوّنِات شَخصيةِ المسلم ، وأنَّه يعدّ عيارًا صادقًا في قياسِ إسلامِ المرء وتمكّنه فيه.

يقُولُ الحقّ ﷻ :« قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦)» [الزُّمر]

قوله تعالَى « وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ » من وجوه معانِيه الكثيرة أن علينا أن تخير من هديه ما هو أعون لنا على أن نكونَ في المقامِ الأعلَى مِن مقامات القرب الأقدس التي مبدؤها مقام

«الذين آمنوا» وذروتُها مقام «الصديقية»وعلَى أن نكونَ أهلًا لجزيلِ المثوبةِ وعليّ الدّرجاتِ من الجنّة.

وسيدنا رسُول الله ﷺ يحثنا على أنَّا إذا ما سألنا الله تعالَى الجنة، فعليْنا أن نسأله الفردوس.

رَوى البخاريّ في كتاب «الجهادِ » من صَحيحه بسندِه عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَصَامَ رَمَضَانَ ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ جَاهَدَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ جَلَسَ فِى أَرْضِهِ الَّتِى وُلِدَ فِيهَا » . فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَفَلاَ نُبَشِّرُ النَّاسَ ؟

قَالَ : « إِنَّ فِى الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ ، أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ » .

هلْ لك نصيحةً لنفسِك أن نعتكف في محرابِ هذا البيان النبويّ الشّريف الحافزك على أن تكون عليّ الهمّة لا ترضَى إلا أن تكونَ العليّ المقامِ في الحقّ والخير والزلفَى إلى الله تَعالَى .

هل لك أن تعتكف في محرابِ نظمِه تتبصَّر رأفة سيّدنا رسولِ الله ﷺ وحكمتِه ومنهاجِه في التَّربية . إنّك إن فعلتَ وجدْت في نفسِك قوةً إلى أن لا ترضَى إلا بعليّ المقامِ في الأعمال الصالحاتِ المُصلِحات ؛ لتكونَ يوم القيام في الفردوسِ الأعلى مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا

هل لك أن تذوقَ شيئًا من عطاءِ هذه المعيّة: «مع النّبيين» أليست هذه المعية من جليل نعيم الجَنَّة ليس كمثلها نعيم مأكل ومشربٍ وملبسٍ ومسكنٍ ومركب.

وسيدنا رسُول الله ﷺ إذا يقول :« فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ » لا يريدك مكتفيًا بأن تسأل ، بل يريدك أن تسألأ وأنت قد هيأت نفسَك لأن يستجاب لك ، فليس كلٌّ من سأل الله تعالَى الفردوسَ استجيبَ له ،وإنما يُستجابُ لمن استجاب لربّه ﷻ « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ »[البقرة : ١٨٦]

إنّه ﷺ يحفزنا أن نهيّئَ أنفسنا لأن نكون أهلًا لأن يستجابَ سؤالنا الفردوسَ.

ولن يدخلَ المرءُ الفردوس في الآخرةِ إلّا إذا هُو أدخلَ نفسَه فردوسَ الله ﷻ في الدُّنيا . إنه طلبُ العلم النّفيعِ لتحقيقِ وراثةِ النّبيّ ﷺ في رسالتِه العظمى : إخراجِ النّاسِ مِن الظّلماتِ إلى النّور.

علوّ الهِمَّةِ فِي طلبِ العلمِ ، وَفِي كُلِّ عَمَلٍ صَالحٍ مُصْلِحٍ مُكوّنٌ رَّئيسُ من مكونات شخصية المسلم ، وأنتَ تراه في زمانِنا يتضاءلُ لدَى غير قليلٍ من طلابِ العلمِ ، ولاَ سيّما العلمُ ببيانِ الوَحي قرآنًا وسُنَّة، والعلومِ المُعينةُ علَى تحقيقِ كمالِ العلم بِه.

★★★★★

ثُمّ يأتِيك النَّبأُ الْخامسُ:

« وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا ، وَرَّثُوا الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ ».

ذلك رأسُ الأمرِ وشرفُه وذِروةُ سنامِه ، وهو المُبتغَى تحفيزُ المسْلم لتحقيقِه، وأن يكونَ له منه النَّصيبَ الأوفر .

رأسُ القول هذه الجملة النّورِ قَولُهُ : « إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ» جاءت المعنى مؤكدًا ، ولم يكن توكيدُه مِن أنّه مَحلّ إنكارٍ من المخاطبِ بِه . لا يكونُ ذلك . إنّما التَّوكيدُ اقتضاهُ علوُّ شأن المعنَى إيماءً إلى وجوبِ أن يكونَ المقرّرَ فِي الفؤادِ الحاضِرَ فيه لا يَغيبُ ولا يغيمُ ؛ ليكونَ تحقيق التَّحقق به هو المأمُّ والمَحَجّ الأمجدُ الأحمدُ .

ليس في الحياة كلّها ما اجتمع فيه سُمو شأن المورّثِ (الأنبياء) وشأن الوارثِ (العلماء) فأنعم بالمورّثِ والوارث ، ولما كان كذلك كان ضرورة ألَّا يكون الميراثُ كمثل ما يكونُ من دونهما . ولذا قالها ﷺ « إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا » هذا قولٌ يقتضيه ما قبله ، ولو أنَّه ﷺ لم يصرّح به لكان لكلّ عقيلٍ فهيمٍ أن يدركَه، فمقتَضى علو شأن المورّثِ والموراثِ وما أعرب به عن كلّ ، ألا يكونَ الميراثُ من جنس ما يكون الميراثُ مِن غيرهما .

منطقُ العقلِ الفِطريّ يقضَي بأن يكونَ الميراثُ مِن جنسٍ ما أعرب به عن كلٍّ «الأنبياء»و«العلماء»

وهذا - أيضًا- يقتضِي بمنطق العقل الفطريّ الصَّفيّ من كلّ رِكسٍ أنّ الميراثَ ليس مجرد علمٍ، إنّما هو العلم الّذِي في أُفق النّبوة ، ما هو بعلمِ أهلِ الدُّنيا الّذِي بملك التَّقِي والشّقِي أن يحصِّله.

وما هو بالعلمِ الّذي يمكنُ أن يُكتسَب بالعقلِ الأجرد من نور الإيمان والتقوي والإحسان ، هو علمٌ من أفق آخر، من أفق النّبوةِ.

كان مقتضَى الظّاهِرِ ألّا يعطفَ قوله «إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا » ذلك أنّه لازمٌ إدراكًا من سباقِه : «إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ

الأَنْبِيَاءِ» بيْد أنَّ البيان النّبويّ جاء به معطوفًا بـ" الواو" إيماء إلى ما في اللحاق « إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا » مِن مُعايَرة ما لِما في السباق «إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ» وتَتمثَّلُ تلك المُغايرة في أنَّ الأنبياءَ ليْس مِن شأنِهم أن يستبقوا مِن ورائِهم عرضًا من الدّنيا ، فليس لهم من الدُّنيا إلا الكفايةُ لعظيم اليقين بأنّ الأعمارَ والأرزاقَ قرينان ، ما كان لك بقيةٌ من عمر ، فإن لك بقيّةً من زرقٍ

ولذلك يكتبُ لكل إنسانٍ وهو في رحم أمّه عمرُه ورزقُه. فمن أبقى بعده شيئًا من متاع الدنيا ، فما هو برزقِه .

رَوَى البزار في مسنده بسنده عَنْ حُذَيْفَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَعَا النَّاسَ ، فَقَالَ :

«هَلُمُّوا إِلَيَّ ، فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ فَجَلَسُوا فَقَالَ : هَذَا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ جِبْرِيلُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَفَثَ فِي رَوْعِي أَنَّهُ لاَ تَمُوتُ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا ، وَإِنْ أَبْطَأَ عَلَيْهَا

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ .

وَلاَ يَحْمِلَنَّكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ تَأْخُذُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللهِ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلاَّ بِطَاعَتِهِ »

والأنبياء لكمال يقينهم وتوكلهم لم يكنْ لهم أن يتركوا لمن خلَّفهم من ذريتهم عرضًا من الدنيا.

« وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا » [النّساء: ٩]

هذا إنما هو للأنبياء أمَّا من دونهم ، في كمال اليقين والتّوكل فمن رحمة الله ﷻ أن أذن لهم أن يتركوا لذريتهم من عرضِ الدّنيا الحلالِ ما يحفظ عليْهم كرامتهم.

نفي بقوله ﷺ : « إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا » أن ذلك شأن الأنبياء مع ذريتهم ومع العلماء .

ثم بيّن ما يورثونه ، تمكينا له في الأفئدة:« وَرَّثُوا الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ » وجاء به غير معطوفٍ . وهو يحتملُ وجهين :

الأوّل : أن يكونَ ذلك من قبيل «الاسْتئناف البيانِيّ»

والآخر : أن يكونَ ذلك من قبيلِ « كمالِ الاتصالِ توكيدًا»

وهذا الأخرُ هو عندي الأعلَى ؛ لأنَّ القولَ بترك العطف للاستئنافِ البيان يومِئُ إلى أنَّ الجُملة السَّابقته : « إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا » تستثيرُ تساؤلًا في فؤادِ السَّميعِ لِما فيه مِن غرابةٍ أو غموضٍ ، والحَقّ عندِي أنّ هذِه الجُملةَ : « إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا » إذا ما تلقَّاها سميع عقيل يعلم علم يقين أنّ ما يورّثونه إنّما هُو العلم ، فيأتي قوله ﷺ : « وَرَّثُوا الْعِلْمَ » مؤكدًا لما فهمه السّميع العليم تلويحًا .

وتوكيدُه إنما هو مِن العِناية بتقريرِه فِي الفؤادِ لِعظيمِ شأنِه، فيكونُ فِي الفؤادِ مَكينًا، فلا يلتفتُ إلى أي ميراثٍ من دونِه ، فلا يفرح بل لا يتشوَّف إلى أيِّ ميراث من دون ذلك الميراثِ «العلم» ممَّا يحفزه إلى أن يكونَ لذريتِه كما كان النّبيّ ﷺ للعلماء، أن يورثهم العِلم ،والتقوى فالعلم هو الميراث الذي يتكاثرُ بإنفاقِه ، بيْنما كلُّ ما دونه يتناقصُ بالإنفاقِ منه فايّ الميراثين أمجد وأحمد،وأبقَى وأخلد؟

ولذا جاء قوله ﷺ : « مَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ » وجاء نظمه على نحوٍ فياضٌ بدقيقِ المعاني ولطيفه.

تبصّر قوله «أخذه» وما فيه من إيماء إلى وجوب القوة في تحصيله ، فالفعل «أخذ»من الأفعال المستوجبة قوّةً فِي الأداءِ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا»[النساء: ٧١]

« يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ »[الأعراف: ٣١]

« مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا » [هود: ٥٦]

« وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ »[هود: ١٠٢]

« يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا »[مريم:١٢]« فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ »[القمر: ٤٢]

هذا فيه إيماء إلى فتوةِ العزم، وعلوالهِمَّة في تحصيلِ هذا الميراثِ النبويّ ،.

وقوله ﷺ :« أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ » فيه من الإغراء على الحرصِ على الأخذ بذلك الميراثِ .

هو خبرٌ متضمن أمرًا مقتضاه الوجوبُ والفوريّة والدّيمومة ، فقوله ﷺ « بِحَظٍّ وَافِرٍ» موميٌ إلى معنى الوجوب والفورية والديمومة.

ذلك أن منطق العقلِ الفطري يقضي بأن ما كان كذلك لا يستقيم بتة أن يكون ذلك للإباحةِ وأن يكون على التراخي أ أو يكون ذلك في حين دون حين.

من ذا الّذي يكون حالُه مع ما نعته سيدنا رسُول الله ﷺ بأنّه حظّ وافر ، ثم يراه على سبيلِ الإباحةِ أو على سبيلِ التّراخي أو يكون على حين دون حين ؟

لا يكون ذلك ممّن له نصيبٌ ما من العقلِ والنصح لنفسِه.

هكذا ترَى تكاثر سبلُ الإغراء وأساليب التّحفيز في هذا البيان النّبويّ تحقيقًا لما كلف به من « التَّبيين» و«التّبليغ» إخراجًا للناسِ من الظلمات إلى النور:

«وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون» [النّحل: ٤٤]« وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »[النّحل: ٦٤]

« يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ»[المائدة: ٦٧]

★★★★★

إذا ماتبيّن لكم ذلك، وقامِ في أفئدتكم حقًا مبينًا، فحقيقٌ عليْكم أن يكونَ قصدكم الرئيسُ منْ نفرتم من دياركم ، وهجرتكم إلى معقل العلم النفيع الشريف «فسطاط الخير:الأزهر الشّريفِ»إنّما هو أن تحقّقُوا لأنفسكم مقامَ «ورثة الأنبياء» وهي وراثَة رسالة ، وليست وراثة عرضٍ من الدنيا ، فإنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا « إِنَّا مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ لاَ نُورَثُ مَا تَرَكْتُ بَعْدَ مَئُونَةِ عَامِلِى وَنَفَقَةِ نِسَائِى صَدَقَةٌ» (رواه أحمدُ في مسنده) أنتم جئتم لِترثوا سيّدنا رسول الله ﷺ في رسالته. ورسالته إخراج الناس من الظّلمات إلى النّور.

« بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم .الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ »[إبراهيم:١]

فإذا ما سُئلْت : ما أنت ؟ فقل : " إني طالبٌ وراثة رسول الله ﷺ رسَالةً ".تلك رسالتكم . الإخراج من الظلماتِ إلى النور.

وأوّلُ ما يجبُ أن تخرجوه من الظلماتِ إلى النّور إنّما هو أنفسُكم .وسيدنا رسُول الله ﷺ يقولها: « ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا » [مسلم: الزكاة]

وخيرُ الصدقة عليْها أن تُخرجها من الظلمات إلى النور، أن تتصاعد بها منْ دركاتِ الإنسانيةِ الظَّلماء إلى درجاتِ "الآدمية" العالية.

وسيدنا رسُولُ الله ﷺ يقولها – أيضًا :« إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا » (أبو داود : التطوع)

أوَ تعلمُ حقّ نفسِك عليك ؟ أن تخرجَها من الظلماتِ إلى النّورِ.

فإذا ما حققتَ إخراج نفسِك مِن الظُّلماتِ إلى النُّورِ ، فعليك بقومِك، ثم أمّتك المسلمة، ثم الجماعة الإنسانية كلّها. فإنّما المسلمُ محرِّر الإنسانية من العبودية للدنيا ، وإخلاصِها لله ربّ العالمين .

المسلمُ محرّرُ عبيدِ الدنيا ، ومعتقُهم من ربقتِها إلى عزّةِ العبودية لله تعالَى وحده.

هذه أربعة مستوياتٍ للإخراجِ مِن الظُّلُماتِ إلى النُّور:

مبدؤها : « إخراجُ نفسِك أنت من الظُّلماتِ إلى النّور ». أن تخرجَها مِن كلّ ظلمةٍ :

مِن ظلمةِ الجهلِ إلىَ نورِ العلمِ النفيعِ المتيع الصّالحِ المُصلِح ، وليس أيّ علمٍ.

ومن ظلمةِ التّقليدِ الأجردِ إلى نورِ التَّجديدِ الأمْجَد الأحْمد .

ومنْ ظلمةِ اجترارِ مقَالاتِ العلماءِ إلى نور التّبْيين والتّقويم والمناقشة، والتفعيل والاستثمار، مستمسكًا بطاعة قول اللهِ تعالَى :

« وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا »[الإسراء: ٣٦]

ومنْ ظلمةِ الذلّ والاستخذاء النفسيّ إلى نُور العزةِ بالله تعالَى .

ومن ظلمةِ إهدارِ العُمرِ والجُهدِ والمالِ فيما لا ينفعُ في الداريْن إلى نور الاقتصاد والاستثمار الحكيم .

ومن ظلمةِ الفقر والعوزِ إلى نور الغنَى عن الخلائق بالله تعالَى واغنائهم .

ومن ظلمةِ العجزِ والكسلِ إلى نورِ الاقتدار وفتوةِ العزمِ.

ومن ظلمة سقوطِ الهمّة، إلى نورِعُلُوِّها وارتقائها .

ومن ظلمةِ التبعية إلى نور القيادة والريادة.

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ»[آل عمران:١١] أيْ كونوا كذلك .

« وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »[آل عمران: ١٠٤]

إنّها ظلماتٌ متكاثرة متكاثفة تحيط بك أولًا ثم بقومك وأمتك.

رسالتك أن تخرج نفسَك وقومك والإنسانية جمعاء إلى النورِ .

« اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »[البقرة: ٢٥٧]

« هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا » [الأحزاب: ٤٣]

« هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آَيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ »[الحديد:٩]

أرايت إلى الظلماتِ التي تحيطُ بك ، فتعيقُك عَن أن تحومَ حولَ حمَى مقامِ « وراثة النبيّ ﷺ»

ذلك هو ما ينبغَي أن يكونَ الجوابَ الصّادقَ لسؤال «لماذا»

لماذا تطلبُ العلم ؟

لماذا نفرتَ من ديارك وقومك،وهاجرتَ إلى «فسطاطِ الخير : الأزهر الشرف»

هذا أول ما يجبُ عليْك أن تحقّقه في نفسِك ، وأن تكونَ عليْه قوامًا رعايةً وحمايةً ، فإذا فرغتَ من ذلك صادقًا متقِنًا انتقلتَ إلى جوابِ السُّؤال الثاني: «بم»

أيْ بم أحقِّقُ هذه الطلبة العلية، وبغيةِ السّنيّة، وغاية السامية والمأمّ الأنفسِ والمحجِّ الأقدسِ ؟

سؤالٌ يستغرقُ جوابُه العمليّ العُمُرَ كلّه، تلقى ربك الرحيم بعد عمر مبارك ، وأنت ما تزالُ تسعى إلى اكمال تلك الأدوات التي بحسن اسْتعمالها ان تحومَ حولَ حمَى مقام «وراثة الأنبياء»

« وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا »[النساء: ١٠٠]



[عمد الأعمال الصالحات المصلحات]

لكلّ عملٍ صَالحٍ مُصْلِحٍ عُمُدٌ يقُومُ عليْها ، تتمثّلُ فِي خمْسةٍ :

١) صَفاءُ القَصدِ (الأخـلاص)
٢) واتّباعُ الشَّرعِ (الكتاب والسُّنَّة)
٣) وعلُوّ الهمّة
٤) وفتوة العَزم
٥) وإتقانُ الصُّنعِ

العمودُ الأوّلُ (الإخلاص)والثَّانِي (اتباع الشَّرع) شرطًا صِحّة ، لا يُقبلُ العَملُ إلّا بكمالِ تحقُّقهما فيه ، فإنْ نقصَ أحدُهما فإنَّ العملَ علَى صَاحبِه رَدّ .

والثلاثةُ الأخر : (علُوّ الهمّة) و(فتوة العزم) و(إتقانُ الصُّنعِ) شروطُ حُسنٍ تحقّق للعمل أن يكونَ مصلِحًا.

وإذا ما كان فقد الأول والثَّاني أو فقد أحدهما يجعل العمل كلّهُ على صَاحبِه ردّاً ، فإنّ الأعمالَ الّتي يتحقّق فيها هذان إنّما تتمايزُ أكثرَ ما تتمايزُ في أثرِها في الحياةِ كونًا وإنسانًا، وهذا ما يُحققه لها الثلاثة الأخر.

وهذا يبين لك أثرَ كلٍّ في العمل : فَقْدُ الأوّل والثَّانِي يَجعلُه غيرَ صالحٍ ، فيردّ

والثَّلاثةُ الأخرُ فقدُها يجعلُه غيرَ مُصْلِح ، فلا يكونُ له أثرٌ في قومِه وأمّتِه، بل وليس له أثرٌ في صانعِه .

وهذا يُبينُ لك عن عِلَّة عدمِ تأثيرِ العِلم والعلماءِ في زمانِنا في الأمّة على كثرةِ العلمِ واتساعِه وتنوعِه وكثرةِ العلماءِ بكتاب الله ﷻ وبسنةِ رسُوله ﷺ في الأمّةِ . فالمصلحون فيها من أهلِ العلم جدّ قليلٍ.

هذه الثَّلاثةُ الأخر غيرُ قليلٍ من طلابِ العلم لا يُعنَى بتحقيقِها فِي طلبِه العلمَ ،ممَّا يُفقِدُ علمَه أثرَه فيه ، وفي قومِه وأمتِه.

مِن هنا يؤتى طالبُ العلم . وحقّ عليْهِ لنفسِه وقَومِه وأمتِه والإنسانية جمعاء أن يراقب تحقّقَ هذه الثلاثة في طلبِه،وفي ما حصّله بطلبِه هذا .

★ ★★★★

[تبيين الجواب عن السؤال الثاني :«بِمِ»]

قلت: إن فريضةً عليك - طالب علم – أن تسألَ نفسك" لِمَ أطْلُبُ العلم، ثُمَّ "بِـم أطلبه؟ " ثمَّ "كيف أطلبه؟ "

أوجزت لك فيما سبق بعضًا من الجواب عن السؤال الأوّل (لماذا)

ودونك الجوابَ عن السؤال الثّاني «بـم» الذي أُبيّن فيه عن أدوات طلب العلم النّفيع الّذي يجعلك مؤهّلًا أن تكونَ ممّن يحومُ حولَ حِمَى مقامِ " وراثة النّبوة"

أدوات طلب العلمِ النّفيع المترتب عَلَيه عملٌ صَالحٌ مصلحٌ مخرجٌ من الظلماتِ إلى النور شريجان

الأول: يتمثل في أدواتِ التَّخلية .

والآخر: يتمثل في أدوات التَّحْلِية.

[الشَّريج الأول : التّخلية] .

يتمثلُ هذا في أماطةِ الأذَى عن الطَّريق

منذ أَن قالَها إبليسُ عَلَيْهِ لعنة الله تعالَى متوعّدًا : (فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيم(١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِين(١٧) [الأعراف]

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِين (٨٢) إلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِين (٨٣) [سورة :ص]

والصّراعُ بين الحَقّ والبَاطلِ ، وبيْنَ الخيرِ والشّرّ أمرٌ لازمٌ مِن لوازمِ الحَياة الدّنْيا ، وهذا الصراع فيه حفزٌ على فتوة العزم والثبات

على الحق والخير للذين أمنوا بالله ﷻ وكتبِه ورسُوله ولِما أمر ﷻ بالإيمانِ بِه.

ولولا هذا الصراغُ لفترتْ عزائم أهل الحقِ والخيرِ ، فوجود هذا الصّراعِ نعمةٌ من نعم الله ﷻ علَيْنا أن نُحسنَ إدارتَه ، ليكونَ لنا منْهُ حَسْن العُقبَى .

والعوائقُ والعراقيلُ في طريقِ مَن يطلبون الحقّ والخير متكاثرةٌ ابتلاءً لهم وتمحيصًا وتحفيزًا.

(إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِين (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِين (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِين(١٤٢) [آل عمران]

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُون(٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِين(٣) [العنكبوت]

وممّا تكثرُ فيه العوائقُ طريقُ طلب العلم والتّلقّي الله ﷻ وعَن سيّدنا رسُولِ الله ﷺ ، ذلك أنّه طريقٌ إذا ما تَيسَّر السّيرُ فيه كانت العُقبَى بالغةَ الْحُسْنَى ، ممّا يجعلُ الشّيطانَ وإخوانَه أحرصَ ما يكونون علَى مناكدةِ السَّائرين فيه. «لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيم»[الأعراف : ١٦]

وكان من لقانةِ سيدنا البخاريّ (رضي الله عنه) أنّه روى في صَحيحه بسنَدِهِ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صَلّى الله عَلَيْهَ وعلَى آلِه وسَلّم - قَالَ « يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا ، وَبَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا »

مورده في بابِ " العلم" وباب" الأدب" وَأورده مسلم قي باب «الجهاد والسير»

كأنَّ البخاريَّ يهدِي إلى أنَّ التيسير في طريق العلم هو الأصل الّذي يبنى عليه كلّ تيسير، فمن يسّر له طريق العلم كان ذلك عاملًا فتيًا لأن يتيسر له كلّ بابٍ آخر

ومنأوزّل تيسيرالعلمِ أنْ نميطَ الأذَى كلّ الأذَى عن الطريقِ إليْهِ ، فلا ندع أّى حسي أو معنوي كبيرٍ أو صغيرٍ إلا وأُميط ، ليبقَى الطريقِ إليه معبدًا مأمونًا .

وهذا يهدِيك إلى أن كلّ مَن يسر لك سبيلًا إلى العلم فإنّه مريدٌ بك خيرًا ، وَكُلُّ مَن أقامَ فِي طريقِك إلى العلمِ الكُدَى والعراقيل وكلفك في طلبِه ما لا تطيقُ إنّما هو مُريدٌ بك سُوءًا , ذلك عيارٌ لا يحيدُ .

وهذا يوجِب على كلّ من تولّى أمرَ واحِدٍ أوْ أكثر أن يُيسّر له طريق "العلم" فمَن شقّ عليه فيه شقَّ الله تعالى عليْهِ يَوم القيامة. ومن ثم كانت إزالة العوائق الحسية والمَعنوية عن طريق العلم والفقه والفهم عن الله تعالى وعن رسوله صَلّى الله عليْهِ وعَلَى آلِهِ وسلّم مِن أهمّ ما ينبغي أن يتحققَ .

وإذا ما كان فريضةً على مَن قام لأمرٍ جليلٍ أن يُعدّ العُدّة الّتي بها يبلغُ ما يُريد ، عليه مِن قبلها أن يعلمَ ما سيقوم في طريقِه مِن عوائقَ ، وأن يتخذَ العُدّة لاجتيازها ، فإماطةُ العوائقِ عن الغايةِ مقدّمةٌ على إعدادِ العُدّة للوصولِ إليْها ، وقد كان مِن هَدي سيّدنا رسول الله ﷺ أن جعل إماطةَ الأذَى عَن الطّريقِ صدقةً ، وقدرُ الصّدقة بحسبِ قَدْر الأذَى المُماط ، وأثره في الإيذاءِ .

رَوَى مسْلمٌ في كتاب «الإيمان » من صَحيحِهِ بِسَندِهِ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً ، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ».

قوله : « أفضلها قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ » من وجوه أفضليتها أنّه قولٌ مُنبئٌ عن اعتقادٍ صَادقٍ جازمٍ بوحدانية الله تعالى يؤسَّسُ عليه كلّ قولٍ أو فعلٍ أو حالٍ صَالح ، فهو حاضرٌ في جميع أمرِ العبدِ .

وقولُه «أدناها» ليس حَسَنًا أن تفقَه أنّها أقلّها مثوبَةً ، فإنّ مِن الأذَي ما يحتاجُ صاحبُه إلى فتوَّة عزمٍ وامتلاكِ مهاراتٍ وأدواتٍ ليميطَه عَن الطَّريق.

أدناها أي أقربُها إلى التَّحقق لكثرةِ أنواعِها، فمِنها ما إماطتُه بالغة اليُسر كأماطةِ حجرٍ من الطريق أو نحو ذلك ممّاجاءت به السّنة.

روى البخاري في كتاب «السّنةِ»ومسلم من كتاب «الإمارة» من صَحيحهِما بِسَندِهما عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ :

« بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِى بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ ، فَغَفَرَ لَهُ » (١)

فمثلُ هذا لا يحتاج إنجازه إلى كبير جهدٍ أو تدبيرٍ أو نفقاتٍ ، لا يحتاج إلا إلى صدق قصدٍ ،فلا عذر لأحد مهما بلغ به العوز ألّا يكون له منه نصيبٌ محمود .

والطَّريقُ إلَى الحقّ والخير إماطة الأذى عنه مِن أوجب ما يكون ، وإزالةِ العوائق منه فريضةُ عيْن على كلّ مقتدرٍ. « وَتَعَاوَنُواْ عَلَى

---

(١) مما هو جديرٌ أن تكون مستحضره أنه إذا كانت إماطةُ الأذى عَن الطريق احتسابًا جزاؤُها المغفرة ، فإنّ إقامةَ الأذى فِي الطَّريق جزاؤها المؤاخذة الّتي تفضي بصاحبها إلى النّار.

والمؤاخذةُ قدرُها بقدر الأذى الذي يقام في الطريق ، فأولئك الذين يقيمون في طريق أبناء الأمّة المسلمة ما يصرفُهم عن أن يكونُوا لله تعالى طائعين ، وبما يحبّ مشتغلين هم بذلك أحقّ بعَتِيِّ المؤاخذة الإلهية وعظِيمها .

وصنّاع العوائق في طريق الحقّ والخير في زماننا جدُّ كثير ولولا ضيقُ المقام لسردت عليك عديدًا من صور الصدِّ عن سبيل الله تعالى التي يقعُ فيها كثيرٌ ، وهُم يحسبون أنّهم يُحسنون صنعا، فراقب قولك وفعلك وحالك ظاهره وباطنه لعلك تكون في أيِّ متلبسًا بإقامة أذًى في طريقِ الحقّ والخير .

رَوَى البُخاريّ في الرقاق من صَحيحه بسندِه عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ :« إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لاَ يُلْقِى لَهَا بَالاً ، يَرْفَعُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لاَ يُلْقِى لَهَا بَالاً يَهْوِى بِهَا فِى جَهَنَّمَ » .

الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَاب [المائدة:٢]» [المائدة:٢]

وهذا مما يحتاج زيادةً على الإخلاصِ وصفاءِ القصد إلى شيْءٍ مِن العلمِ والحكمةِ والعزيمةِ فهو عبادة الأخيار النُّبلاء .

وأولَى ما تجبُ إماطتُك الأذَى عنه إنّما هُو طريقُك أنت إلى حُسْن طابَ العلم وحسن الفهمِ عن الله تعالى وسيدِنا رسولِ الله ﷺ « ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا ». (سنن النسائي:الزكاة)

وأوّلُ الأذَى الّذِي تجبُ إماطتُه من طريقِك ما كان فيك أنْتَ ، فراقبْ نفسَك وفتش فيها فإنّ ما الأذَى ما يُحتاجِ إدراكه إلى بصيرةٍ نافذة محيطة دؤوبٍ .

ولمّا كانت العوائقُ عن حسن التلقي والفهم لبيان الوحي قرآنا وسنة جدٌّ كثيرة ، وَلا أُطيقُ اسْتقراءَها تبيينًا، رأيْتُ أن أجمعَها فِي ثلاثةٍ كليّةٍ عقدية يَترتَّبُ ثالثُها على ثانِيها ، وثانيها على أوّلها :

= اعتقادُ أنَّ بيانَ الوحي نصّ إنسانيّ المصدرِ ، وهُو ما يُسمُّونه (أنْسنَة النَّصّ)

= القولُ بتاريخيّتِه (أرْخَنتُه) أيْ هُو نصٌّ مرتبط بمساقِ تاريخ قوله وبِمن قيل لهم ، فلا يَصلُحُ إلّا لزمانِه .

الذَّاهبون إلى هذا في زمانِنا متكاثرون ميسرةٌ لهم مخاطبة العامةِ والعبث في عقولِهم .

= إخضاعُه للعقلِ (عَقلَنته) فما يقبلُه العقلُ يُقبل منه، وما يَردّه يُردّ أيًا كانت وثاقةُ نسبتِه إلَى الله تعالى أو إلى سيّدنا رسول الله ﷺ والذّاهبون إلى هذا أكثرهم ممن كان قوتُ عقولهم وقلوبهم فتاتَ موائدِ الأعاجم من الصلبيين واليهودِ والماسنيون وعبدةِ الشيطان وحفدتهِ ،واتخذوا لأنفسِهم شعار اللبراليّة العقدية ،وكذبوا ، فلو كانوا كما

يزعمون "لبراليين" لتحرَّروا من عبوديتهم لعقولهم ، فهم عبدة عقولِهم وأهوائهم وشبهاتِهم .

حَسِبوا أنَّ عقولَهم ليس كمثلها عقلٌ ، وليس أحمق مِمّن يزعم أنّه حرٌّ طليق وهو المُكبل بقيود عقلِه الضّليلِ الهزيلِ المتهافتْ .

والله ﷻ لم يقل ومن يطعْ عقله فقد أطاع الله ، بل قالها

« مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا » [النساء: ٨٠]

تلك الثلاثة العوائق الكلية لو فتشت في حالكِ وراقبتها لتبين لك أنّه قد يُصِيبُك غبارٌ منه أوْ مِنْ واحدٍ منها ، وأنت لا تكادُ تشعرُ ، فهو أحفى منْ دَبيبِ النّملِ فأتق ، فإنَّ الأمرَ جِدٌّ خَطيرٍ.

وحرَى أن تكون على ذكر من أن هذه العوائق لا تكون إلا إذا كان المنطلق أن القرآن والسنة تراث مثله كمثل أي تراثٍ لأي أمةٍ ، فهم إذا ما ذكروا كلمة" تراث" أدرجوا فيها القرآن والسنة،ومنهم من يسعى إلى التخفي والمخادعة، فلا يذكر كلمة القرآن والسنة، بل يكتفي بكلمة التراث فيقول بأنسنة التراث ،وتاريخيته وعقلنته ، وهو يقصد بهذا القرآن والسنة، لأنه ليس في الناسِ من يرى أن التراث البشري ليس منتجًا بشريان ،وانّه «زمكانِي » نسبيّ ،وأنَّه عقلانيّ

وبناء على ذلك لايكون الناقاش في بشرية النص (التراث) وتأريحيته وعقلنته إلا إذا كان المضود بالتراثِ القرآنَ والسنة، فهما محل المنازعة ، ومن هنا يتسلل إلى تَثبيت القول بأنسنة التراث وتاريخيته وعقلنته، فإذا ما استقر ذلك فيك كشف الغطاء بأن القرآن

من التراث ،وهنا تكان الطامة، فاحذر خداعهم، فإنهم قد طعموا على موائد الشيطان وخدنة وسدنته.[1]

★★★★★

---

[1]) راجع كتاب «» الفكر الإسلامي . نقدٌ واجتهاد . » " السؤال الحادي عشر: ما هو التراث؟ تأليف محمد أركون . ترجمة وتعليق: هتشم صالح, ن دار الساقي, بيروت.الطبعة الخامسة سنة ٢٠٠٩م شر ص ١٠٧-١١٠

العائقُ الكليّ الأوّل:

[أنْسَــة النصّ] [١]

من أنكَى العوائقِ عن حسن طلب العلم ببيان الوحي اعتقادُ أنّه نصٌّ إنسانيّ المصدرِ: خَلقه إنسانٌ في صدرِه وَفْقَ ملكاتِه وقدراتِه العِلميّةِ والمَعرفيَّةِ والذّوقِيّةِ والشّعورِيّةِ ، وَوَفْقَ المُؤثّراتِ الخارجِيّة الّتِي تَكتنِفه وأجراه على لسانِه بيانًا عمّا اعتلج في صدره ، كما هو الشّأن في ما يُبدعُه الأدباءُ.

ويترتبُ على ذلِك نزعُ القداسةَ عَن النّصِ ، واعتقادُ أنّه عرضةٌ للنقائصِ الّتي تعرضِ لبيان الإنسان أيًّا كان مقامُه في التّفكر والتّذوقِ والإبانةِ .

الأنسنة ترمِي إلى نزع قدسيّة النّصّ والبحث عمّا فيه مِن النقائصِ سواء في محتواه المعرفيّ أو أسلوبِه التّصويريّ .

والقائلون بأنسنة النّصّ يَنظرون إلى ما نُسمّيه بيان الوحي قرآنًا وسنة أنّه بيانٌ يحتاج إلى مناقدةِ ومراجعة، وإلى تحقيقٍ . [٢]

---

[١] لمزيد من العرفان بدعوَى أنسنة اقرأ كتاب:«» انسنة النص .مسارات معرفية معاصرو. نأليف د: محمد سالم سعدالله . نشر جدارا للكتاب العالمي, عام ٢٠٠٧م عمان الأردن

، وكتاب :«حرب المصجلحات » تأليف حسيمن درويش العادلي .نشر داراهادي. بيروت .الطبعة الأولى عام ١٤٢٤هـ

وبحث«» أنسنة النصّ القرآني. القراءة الحداثيةِ لنصر حامد أبي زيد. تأليف نور الديم سَهلي. مجلة روافد ,المجلد (٦) عدد(٣(ديسمبر سنة ٢٠٢٢م (ص: ١١٧٨- ١٢٠٢)

وبحث « أنسنةِ الظاهرة الدينية في الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر ». تأليف محمد بن حجليمة . المجلة الاجتماعية القوكية. المجلد (٥٦) عدد(٣) سبتمبر سنة (٢٠١٩م) (ص ١١٩- ١٤٨)

وبحث:«أنسنة الوحي. دراسة نقدية» تأليف حسان القاري – جامعة دمشق. مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصَادية والقانونية – مجلد(٢٦) العدد(٢) سنة ٢٠١٠م (ص ٣٧٧ – ٤٢٤)

[٢] يقولُ أركون؛ حاثًّا على احتدامِ السِّجالِ وامتدادِهِ لتَحقيقِ فَريضةِ «تحقيق النَّصِّ القُرآنيّ» مِن عِدَّةِ نُسَخٍ: «المَعركةُ مِن أَجلِ تَحقيقِ القُرآنِ لم تَفقِد اليومَ أَهمِّيَّتَها العِلميَّةَ على الإطلاقِ، وذلك لأنَّها هِي التي تتحكَّمُ بِمدَى قُدرتِنا على التَّوصُّلِ إلى قِراءةٍ تاريخيَّةٍ أكثرَمِصداقيَّةٍ لهذا النَّصِّ». اهـ

هنالكَ من بني جِلْدتِنا مَنْ يزعمُ أنّ هنالك قرآنا قبليًّا،وقرآنًا بعديًّا .

القبليّ منهما ما كان قبل التدوين قبل جمع القرآن و كتابته ،وقبل تدوين السنة .

وَالبعدي هو القرآن والسنة المدونين، وهم يزعمون أن بين الماقبلي والمابعدي اختلافٌ بالزّيادةِ والنّقصِ والتّحريفِ، وأن المابعدي يحتاج إلى تحقيق ،وأن الما قبلي لا نعلمه .

كذلك يذهبون إلى نزع القداسة والثقة عن القرآن والسنةِ ، يسعون إلى تقرير بشريّة ما نقرأ من القُرآن والسنة، وأنَّه ليس كلّه وَحْي لِما حدث من تحريف في أثناء الجمع والتدوين.

يقُول بهذا اناس يزعمون أنهم عربٌ ،وأنَّهم مسلمون، ويجدون في المحافل والمنتدياتِ والدوواين الثقافية ووسائل الإعلام من يسمعُهم ويحتفي بهم، ويقدّمهم ، وييسِّر لهم السُّبل.

مَن نظرَ في بيانِ القرآن أو السّنّة على أنّه كمثل بيان أيٍّ مِن بني آدم ولو كان أَعلم قومِه وأبلغهم وأصفاهم ، فإنّه لا محالةَ لم يفلح في أن يُبصر ما هو خَصيصة بيان الوحي

ومِمن يقُ فِي شيْءٍ من هذا وهُو لا يَشعر أن أعالج بعضَ أساليبِ الكتاب والسُّنّة بما تعالجها به في البيان البشريّ ، : اسلوبِ

يعلق مترجم الكتاب إلى العربية : «بِمعنَى أنّهُ ما دُمنا لَم نتوصّل بعدُ إلى نُسخةٍ مُحقَّقةٍ تمامًا عنِ القُرآنِ، فإنَّ قِراءتَنا التَّارِيخيَّةَ له سوفَ تَظلُّ ناقِصَةً، وعلى الرَّغمِ مِن كُلِّ الجُهودِ التي بَذَلَها الاستشراقُ مُنذ «نُولدكه» وحتى اليوم، إلّا أنَّ «تَحقيقَ القُرآنِ» لا يزالُ يُعانِي ثَغَراتٍ مُهمَّةً، ويَبدو أنَّ هذه الحالةَ لا مَرجوعَ عنها ؛ لأنَّ كُلَّ النُّسَخِ التي كانت مُعاصِرَةً للقُرآنِ دُمِّرَت إلّا نُسخةً واحِدةً هي النُّسخةُ «الأرثونكسية» التي فرَضَتها السُّلطةُ الرَّسميَّةُ، فلو بَقِيَت نُسخٌ أُخرى مُعاصِرَةٌ لهذه النُّسخةِ، كمُصحَفِ ابنِ مَسعودٍ وغيرِه لاستطَعنا التَّوصُّلَ إلى صُورةٍ أكثرَ تاريخيَّةً أو أكثرَ حَقيقةً للنَّصِ، وكيفيَّةً تركيبيَّةً»

(الفكر الأصولي واستحالة التأصيل؛ نحو تاريخٍ آخر للفكر الإسلامي» لمحمدأركون / ترجمة هاشم صالح/ دار الساقي . بيروت.ط(٣) سنة ٢٠٠٧م..ص: ٤٥.

"الاستعارة" أو تطبقّ إجراءات " نظرية النّظم الجُرْجانِيّة" على بيان القرآن والسّنة تطبيقًا حرفيًّا

ذلك مِن العوائق التي يَجبُ أن تُمِيطها عن طريق التَّلقّي عن الله ﷻ وعَن رسُوله ﷺ .

هنالك مُفارقة كاملةٌ بيْن مصدر بيانِ الوَحي قرآنا وسنة ، ومصدر بيان الإبداع البشريّ شِعرًا ونثْرًا أدبيًّا أو علِميًّا

تجريدُ النَّظر في بيان الوَحي قرآنا وَسُنّةً مِن هذا النّعت (أنَّه وَحْي) فِي أثناءِ النّظر فيهما هو العائقُ الأشدُّ الأنْكَى الّذِي يُحاجَز المُسلم عَن أن يُبصِر شيْئًا ممَّا جاء بِه الوَحْي، وَلَسْتُ بواجِدِه فِي غيرِه.

وهذا يُبين لك أنّ قول مَن دعا أتباعَه أن ينظروا إلى القرآنِ والسّنة على أنّه بيانٌ أدبِيّ إنّما هي دَعوة غفولٌ خَلَط بيْن بيان الوحي وبيان البشر الإبداعِيّ فِي منهاجِ التَّبصّر والتَّذوّق إنّما هو مناطُ المُنازَعة. ([1])

علينا أن نفرق في وضُوح بين بشرية ما يُنتج من فهوم حول القرآن وبين القرآن نفسِه .

طل ما قال أهل العلم حول القرآن هو منتمٍ إلى مفهمهم النصّ ،وليس نفهوم النصّ نفسه، مفهوم النص يعني ما يحمله منطوقُ النصّ القرآني،وهو بلا ريب إلهيّ صرفٌ ، أما مفهوم الناسِ كل الناسِ غيرِ النبيّ ﷺ هو منتج بشريّ أما مفهوم رسولِ الله ﷺ فهو إلهي المصدر محمدي العبارة .

---

[1]) مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب» لأمين الخولي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ،الأعمال الكاملة ط: سنة: ١٩٩٥م .: ١٠ / ٢٢٩-٢٣٠.

وانظر مفهوم النصّ: دراسة فِي علومِ القرآن» لنصر حامد أبي زيد. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة: ١٩٩٣م.: ١٢-١٤،١٣، ٢٧، ٢٩، ٣٠.

القائل بـ«مفهوم النصّ» عليه فريضة أن يحرر نوع الإضافة أهي إضافة «مفهوم » إلى «النص» فيكون عديل قولنا «معنى النّص» أعني المعنى القصدي ،المعنى الدلالي، ولا أعْنِي المعنى الفهمي .([1])

★★★★★★

ومن القائلين بأنسة الوحي قرآنا وسنة من يُخادعك، فيذهب إلى أن القرآن له وجودان وجود ميتافيزيقي (غيبي) ووجود (فيزيقي) وأنهما وجودان متغايران:

الميتافيزيقي الغيبي نصّ إلاهي، فإذا ما تم تنزيله على النبي صار فيبزيقيّا فهو منتجٌ بشري، فالذي هو ميتافيزيقيّ إنما هو غيبٌ لا نعلم عنه شيئًا، وهذا هو الإلهي، والذي معنا هو القرآن الفيزيقيّ وهذا منتج بشريّ ، فنحن نتعامل مع نصّ فيزيقي بشريّ، فهذا يعني أن هناك « قرآنًا قبليّا » أي ما قبل التنزيل ، و «قرآنًا بعديّا» أيْ ما بعد التنزيل وهو المنزل على رسُول الله ﷺ فهما قرآنان متغايران ، للأول قَداسته ، وللأخر بشريته .

وهذا قريبٌ منه قول القائلين بأن المعجز إنما هو القرآن الذي هو عبارة عن الكلام النفسي الذي لا نعلم عنه شيئًا، أمَّا القرآن اللفظي فغيرُ معجز. وتلك هي البلية الماحقة .

الحقّ المبين المكينُ أنّه ليس إلا قرآن واحدٌ :

الذي في اللوح المحفوظ هو هو نصّ الّذي في مصَحفنا التي نرتل ما فيها،ونصلي به .

« بَلْ هُوَ قُرْآَنٌ مَجِيدٌ ★ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ »[البروج: ٢١ - ٢٢]

---

[1]) لكل بيانٍ بشريّ عالٍ ثلاثة أنواعٍ من المعنى : معنى قصدي،ومعنى دلالي ،ومعنى فهمي.

القصدي هو مقصود المتكلم،وهذا لا يكلع عليه المتكلم،ومعنى دلالي وهو ما دلّ عليه بيانه، وهذا في كلام البشر قد يغاير المعنى القصدي قليلًا أو كثيرًا، وفق قدرة المتكلم على بأفحاطة بكل معانيه، فيكون كلامه أمينًا لا يدع شيئًا،وإن دق من معانيه القصدية إلا وأقامها في بيانه,هذا لا يكاد يتحقق إلا لنبيّ ، أمّا المعنى الفهمي، فهو المعنى الذي يقوم في عقل القارش أو السامع صغيرًا أ

ليس أدني اختلافٍ بينهما،ومن قال بأدنى اختلافٍ بينهما فهو ضالٌ ضلالًا يفضِي به أمَّا إلى الفسوق أو إلى إلى الكفر.

••••••

العائق الكليّ الثاني:

[تاريخيّة النَّص][1]

وممَّا يترتّب على القول بأنسنة بيان الوحي من عوائق التلقي الأخذ بدعوَى تاريخية النّص القرآني والنبويّ ذلك أنّ كلّ بيان بشريّ إنّما هو مرهونٌ بسياقٍ مقاميّ يعملُ فيه، فقَلَّ أن يكون من الناسِ بيانٌ هو الصّالح لغير زمانِه ومكانِه . ذلك أنَّ بيان كلّ مُبين على قدرِ وسعِه علمًا ، وعلمُ البشر قاطبةً محدودٌ (وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلا} [الإسراء:٨٥]

فلا يكون إلّا لما كان في زمانِه أو ما شابهه ، فيتولَّدُ مِن التّسليم بأنْسنة بيان الوَحي التّسليم بتاريخيته، وهذه دعوَى بالغة السّوءَى معتقدًا

---

[1]) لمزيد من العرفان اقرأ كتاب : تاريخية الفكر العربي . لمحمد أركون.ترجمة هاشم صالخ. نشر مركزالإنماءالقومي. ط(٢) سنة ١٩٩٦م

وكناب «إشكلية تاريخية النص الديني» تأليف مرزوق العمري. نشر: منشورات ضفاف،ودار الإمان – الرباط – ومنشورات الاختلاف. الطبعة الأولى : ١٤٣٣هـ

وكتاب «العلمانيون والقرآن الكريم: ناريخية النص» تأليف أحمد إدريس الطحان,.نشر دار ابن حزم – الرياض عام.١٤٢٨هـ

بحث« تاريخية النص القرآني عند محمد أركون :دراسة تحليلية نقدية » إعداد:بلعلياء محمد. مجلة " المشكاة" تصدر عن جامعة الزيتونة _ تونس.العدد(١٥) سنة(٢٠١٧م)

« التاريخية في فهم الايات القرآنية ، دراسة نقدية » إعداد احمد حسن أحمد عبد العظيم . نشر في مجلة الدراسات العربية – دورية كلية دار العلوم – المنيا. العدد ٣٨ سنة ٢٠١٨م

خطر النزعة التاريخية على ثوابت الإسلام. تأليف محمد عمارة – نشر مكتبة وهبة (ط:١) عام ١٤٣٢هـ ،

وكتاب« الفكر الإسلاميّ قراءة علمية .» محمد أركون ، ترجمة صالح مركز الإنماء القوميّ والمركز الثّقافي العر بي المركز الثقافي العلمي عام ١٩٩٦م

وتاريخية الفكر العربي الإسلامي . محمد أركون . وبحث « التاريخية في فهم الايات القرآنية ، دراسة نقدية » إعداد احمد حسن أحمد عبد العظيم . نشر في مجلة الدراسات العربية – دورية كلية دار العلوم – المنيا. العدد ٣٨ سنة ٢٠١٨م

وأثرًا، فأقلّ ما يترتب عليها أنَّ هذا البيان ليس لغير زمانِ عصر المبعثِ،وأن الأخذ به في غير عصره ومصره هو من التخلّفِ [١]

والقولُ بيباريخية النّصّ القرآني والنَّبويّ يفضِي إلى القول بعدَم عمومِ الرّسالة ، وأنّه للنّاسِ كلّ النّاس كافّة . فللناسِ في كلِّ عصرٍ ومِصر أن يَتخذوا لأنفسِهم بأنفسِهم من القواعد والضّوابطِ والقِوانين ومناهج الحياة ، وعلاقاتهم ما يرونَه هو الصالح لهم .

وفِي القول بتاريخيّة البيان القرآني النّبويّ تكذيب لقول الله ﷻ (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِين) (الأنبياء: ١٠٧) وبقوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُون) (سبأ:٢٨)

فكيف يكون مرسلًا للنّاس كافة ، وكيف يكون رحمة للعالمين ، وبيانه ﷺ صالح لزمانِه وحدَه وبيئته وحدها ؟

لو أن القائلين بتاريخية بيانه التفتوا إلى ما يفضِي إليْه قولهم هذا لكفّوا عن قوله ، وظني أنهم لم تمتد بصيرتهم إلى مآلات قولهم ، فحقٌّ لهم علينا أن نكشف لهم الغطاء، وأن نشير إلى مآل قولهم . وحقٌّ على كل ذي لسان ألا يحرك لسانه بقولٍ هو لا يعلم ما يفضي إليْه ، ولا يدرك مآلاته .

والقولُ بتاريخيّة بيان الوحي ، يعني أنّه لَم يعُد صالحًا لزماننا إلّا في " الطّقوس الشعائرية" أمّا ما يتعلق بشؤون العلاقات السّياسية والاقتصاديّة، والعلميّة والثّقافية والاجتماعية،فإنّه لا يصلح لها ، ويحلّ محلّه العقل العِلميّ الجمعيّ المترهن ببيئته ، فلكلّ زمان أو مكان

---

[١]) يراد بتاريخية النصّ أن ولد في سياق زماني ومكاني له أثر فيه، فهو لا يفهم إلا في ضوء هذا السياق،ولا يستعمل إلا فيه،وبهذا تكون النصوص بعد السياق الذي أنتحت فيه تراثًا متحفيًا، لا يرجع إليه توظيفًا في حركة الحياة، بل لرؤية ما كانت عليه الحياة قبلُ، فهو وثيقة تاريحية

وعرقٍ بشري عقله العلميّ الجمعيّ . يتخذ لهم ما هو أصلح لهم ، وإن خالف العقول العلمية الجمعية الأخر.

وهذا شأن سحرة إبليس لا يقتحمون دفعة واحدةً هم يتسللون الهوينى إلى أن يبلغوا مُنتهى الغاية. هُم يتخلقون مزيد من الصبر والإصرار حتّى يحققوا الغاية ، لا يستعجلون الثّمرة .

بدؤوا بمرحلة « تغريب الإسلام » ثم انتقلوا إلى «تجريم الإسلام» وهم اليوم يسعون إلى« تَغييب الإسلام» ونحن في سُباتٍ عميقٍ .

★★★★★

جُمُعةُ القول:

= تاريخية النّصّ أساسها الزعم بأنّ القوانين والأحكام إنما «زَمكانية»أيْ هي نسبيةٌ غيرُ أبدية مرتبطة بزمانها ومكانها ، لا عموم لها،ولا بقاء. خاضعة لتغير الزمان والمكان.

وهذا إذا قيل في ما هومنتجٌ بشريّ صِرفٌ (أيْ غير مستمدٍّ استمدادًا صحيحًا صريحًا من الوحي)، فلا حَرج أمَّا إدْراج نصوص الوحي قُرآنًا وسنةً في ذلك ، فهذا هو الضلالُ المبين، لأن فيه اتهامًا للوحي قرآنا وسنّة بأن من أوحاه ﷻ لا يعلم ما سيكون في كلّ زمانٍ ومكانٍ ؛ ليجعل وحيه موافقًا لحالِ كلّ زمانٍ ومكان.

وفيه أن الإسلام كتابًا وسنة، غيرُ صَالحٍ لكلّ زمانٍ ومكان ومن ثَم هو غير مصلحٌهما .

وفيه اتهام لله ﷻ بأنّه أهملَ عباده الآتين من بعد زمان الوحي ، وعباده الذين ليسُوا في مكان الوحي ، وهذا هو الضّلالُ المبين.

ومن ثَم لا يقول بتاريخية بيان الوحي قُرآنا وسنة إلا من كان منكرًا للوحي ، أو متهمًا الله ﷻ بالجهل ،وبالعجز وأنه غيْرُ قَيوم على العالمين وكل ذلك هو الكفر المبين.

= كلُّ ما في أيدي النَّاس من بيان سوَى القُرآن والسُّنّة إنما هو منتجٌ بشري ، يقال بتاريخية، ومن ذلك الكتبُ التي يقدسها غير المسلمين كلها منتجٌ بشري يقال بتاريخيتها ،وأن ما فيها نسبيّ .

•••••

العائق الكلي الثالث :

عقلنة النَّصّ.[١]

يراد بالعقلنة اتخاذ العقل البشريّ سلطانًا على الوحي . ما يَقبلُه يؤخَذُ به على قدر ما يقبلُه منه ، وقبوله له أمرٌ نسبيّ متغيّر ، فما يقبلُه في زمنٍ قد لا يقبله في زمنٍ بعده، وما يقبل في مجتمع لا يقبلُ في آخر، فاستفت عقلك ، ولا تَقْفُ ما ليس عقلُك براضيه. عيارُك ومفتيك فيك : "عقلك" . إنّما أنت حرٌّ. [٢]

ذلك أساسُ العقلنة ، وهو مآل أنسنة النبوة ، بل هنالك من أنسن الألوهية. كذلك تهرف ألسنتهم ، وذلك بيانهم.

واتخاذ العقل عيارَ قبولٍ ورفضٍ يفضِي إلى الفوضى ، فكلٌّ يحتجّ بعقله، ودعوى العقل الجمعي، ولا سيما في زماننا العاشق التمرّدَ على كلّ ما هو موروث، وعلى كلّ ما يقَاربُ بين الشعوب ، فالعقل متأثّر

---

[١]) لمزيد منالعرفان بالعقلانية اقرأ: كتاب«الاتجاهات العقلانية الحديثة» تأليف: ناصر عبد الكريم العقل.نشر:دار الفضيلة - الريلض(الطبعة الأولى_ عام ١٤٢٢هـ)

العقلانية المعاصرة ببين النقد والحقيقة، سالم يفوت. . دار الطليعة ، ببيروت ، الطبعة الثانية

وبحث «منهج المدرسة العقالنية الحديثة في دراسة ألحاديث المشكلة » اعداد :سعيد صالح الرقيب

منهج المدرسة العقلية في التفسير. الدكتور فهد بن عبد الرحمن الرومي

بحث :« مفهوم العقالنية في الفكر الغربي. دراسة نقدية في ضوء الإســلام » إعداد: نجلاء بنت إبراهيم بن علي الداود

وقفات مع أدعياء العقلانية حول الدين والعقل، والتراثوالعلم، ,تأليف .خالد كبير علال: نشر:، دار المحتسب . عام ١٤٣١هـ

[٢]) لا نريد بالعقلنة هنا أن كل ما جاء به الوحي له وجهٌ من العقلِ,إن العقل الفطري جارٍ مع الوحي، فذلك أمرٌ غير مدفوعٍ، إنماأريد مذهب الجاعلين العقل سلطانا على كل شيئٍ حتى ما جاء به الوحي، فما يقبله العقلُ هو الحقّ،وإن خالفَ الوحي.

بثقافة مجتمع صاحبه، والثّقافة متغيّرة لا تعرف قرارًا ، فأنَّي لقولِ أمة أن تتلاقى بغير ما يوحدُها.

اتّخاذا ما يحتاج إلى ما يوحّده أويقاربُه عيارًا ومقاربًا هو من التّناقضِ الذي يأباه العقل الذي يؤلِّهونه.

ومِن ثَمَّ لن تجدَ نصًا واحدًا يُمكن أن يتخذ اساسًا لعلاقة الإنسان بأيِّ شيْءٍ حتى بنفسِه هو ، وعقلِه هو. وحينذاك تَعَمّ الفَوضَى فتفسُد الحياة.

وجُمُغة القول:

(أ) اتخاذُ العقلِ سلطانًا على الوحي كتابًا وسنّةٍ هو السبيل إلى الضلالِ المبين، فرسالةُ العقلِ الصّحيح الصريح إنّما هي فهم النّصّ الْمُوحَى، والوَعي بمقاصده ،واستنباطُ ما هو مكنوزٌ فيه من دقيقِ معانِي الهدى ولطيفها.

(ب) الكتاب والسنة لا يأتيانِ بما يناقضُ العقل،ولكن قد يأتيان بما يحار فيه العقلُ ولا يهتدي إلى الخق فيه بذاته بل بالتزام أصول الفهم والاستنباط .

(ت) في الكتاب والسّنّة من الأدلة العقليّة الدقيقةِ الّلطيفة ما لا يتلقاها إلا من اتخذ إلى ذلك سبيلًا قويمًا ، وفيهما أيضًا دعوةٌ إلى التفكر والتدبرِ والاعتبارِ

« أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (٨٣) » [النّساء]

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)[محمّد:٢٤]

★★★★★*

تلك أهمُ العوائق الكليّة لفقهِ بيان النبوةِ على النّحو الّذِي هُو أليق به مخرجًا للنّاس مِن الظّلمات إلى النُّور.

★★★★★

هذه الموبقاتُ الثّلاثُ :

- ردّ القولِ بالوحي اعتبار القرآن والسّنة منتجًا بشريًا
- ثُمّ القولُ بتاريخيتهما، وأنّهما غير صالحيْن لهذا الزّمان، ولكلّ النّاس .
- ثُمَّ تأليه العقل في فقههما.

هذه الموبقات هي السبب الرئيسُ في كلِّ ما يقع فيه الذين تجاوزا في نظرِهم في بيان النُّبوّة .

•••••

عوائقُ جُزْئيَّةٌ:

العوائقُ الثَّلاثةُ السَّوابقُ إنّما هي عوائقُ كليّةٌ ، تصاحبُها عوائقُ جزئيّة لا تكونُ مؤسَّسةً على تِلك العوائقِ الكُليّة ، بل هي ولائدُ أدواءٍ عوارضَ لَم يَتّخذ المُبتلَى بها حَيْطَيْة ، فمنهم من مَسّته ، ومنهم مَن طعنتُه ، وإخراجُ مَن مسّته مِن الظّلماتِ إلى النُّور يسيرٌ مقتدرٌ عليْهِ ، بيْنا إخراجُ منْ طَعنته فيه حزونةٍ يسْتعذبها مَن فقهِ قَدْرَ المُخْرِجِينَ إخوانَهم مِن الظُّلُماتِ إلى النُّور عند ربّهم ﷻ ، فلا يَرَى فِي مجاهدتِه إلّا سَعْيًا إلَى مَحبّة ربّه ﷻ لَه ، وفؤادُه يبتغنّى بوعْدِ ربِّه ﷻ : « فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ ... » فَيَجِدُّ في السّيرِ ، وَكُلَّمَا جَدَّ تَراءَتْ لَهُ أبوابُ الرَّضا ، فيَهْتِفُ فؤادُه : «لَبيّكَ اللَّهُمَّ لَبيْك»

العَوائق إجمـــالًا

يُمكنُ – بعونِ اللهِ تَعالَى- أن نجملها في سبعةعوائق سُلوكية: .

<u>أولا:</u> سوء العلاقة بالله ﷻ وبرسُوله ﷺ ممثلًا في أمريْن كليين:

= عدم الرّضا بمراده القدريّ وبِمرادِه الشّرعيّ

= استشعار أنَّ في بعضِ الأحكام والأدابِ تضييقًا وتقييدًا ، بلْ مُعشيقًا عن الانطِلاقِ إلَى تَحقِيقِ ألمراد أو المشتَهَى

<u>ثانيا:</u> الاسْتكبار والعُجب بالنفسِ

<u>ثالِثًا:</u> الاشتفال بتحصيل ما زاد عَن الحاجةِ من متاع الحياة الدنيا الحلال

والاسْراف في مشتَهى الأنفس من مأكل ومشربٍ وملبس حلال. فكيف بما فِيه شبةٌ أو ماكان خليط حرامٍ.

واشْتِغال العقلِ والقلب بالغد البعيد ولاسيّما ما يتعلّقُ بزهرة الحياةِ الدنيا وإن كانتْ حلالًا.

رابعًا : الاختلاط النفسي والعقلي بحركةِ العامّة الدّهماء في حياتهم الدّنيا .والانخراطُ في لِغوِ الأقوالِ والأفعال

خامسـًا : الغفلة عن ديمومية التطهر من الآثام والشّوغل الدنيوية

سـادسًا : الغفلة عن الذكر لسانًا وعقلًا وقلبًا وسلوكًا (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٧)][سورة طـه]

سابعًا : الاكتِفاء بمدارسةِ بيانِ الوحيِ مدارسةً علمية دونَ تقيقها سلوكًا

(يتبعه - إن شاء الله تعالى – قولٌ في عوامل التلقي)